قد أفلح من تزكى

التفكر

في

الكون والإنسان والقرآن



عثمان نوري طوباش

دار الأرقم



إسطنبول ١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م

نسخة منقحة

إسطنبول: ١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م

اسم الكتاب باللغة التركية: Kâinat, İnsan ve Kur'ân'da Tefekkür

الترجمة: د. عبدالله المصري

التدقيق اللغوي: محمد عز الدين سيف – محمد أوقومش

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٢٩٧٧

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

Language: Arabic

العنوان:



▸ Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Fax : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.org

Web site : www.islamicpublishing.org

التفكر

في

الكون والإنسان والقرآن

عثمان نوري طوپباش

دار الأرقم

مُقَدِّمَة

«لا عبادة كالتفكر» [1]

الحمد لله ﷻ صاحب الكرم والإحسان حمداً كثيراً طيباً، فهو الذي أنعم علينا بنعمة التفكر والتدبر، وفتح لنا السبيل لمعرفته ﷻ.

والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ خير من فهم القرآن، وأدرك كنه الكون والإنسان، وعلَّم أمته كيف تفهم هذه الأمور وتدركها بعيون القلب.

أما بعد...

فقد أنعم الله تعالى على البشر- والجن إلى حدٍّ ما- من بين المخلوقات بأن جعل لهم نصيباً من إدراك (القرآن والإنسان والكون) التي هي ثلاثة أمور تتجلى فيها أسماء الله وصفاته، وأعطاهم القدرة على أن يستخرجوا منها لآلئ الحقيقة التي تنير حياتهم، وجعل التفكر والتدبر الوسيلةَ الوحيدة لهذه الغاية.

---

١ البيهقي، شعب الإيمان، ٤، ١٥٧.



والحق أن التفكر والتدبر شرط لا بد منه لبلوغ الحقيقة وإحياء القلب. والقرآن الكريم الذي لا نظير له في الإرشاد إلى الهداية والسعادة يدعونا إلى التفكر بكل وسيلة من أول آية فيه إلى آخر آية. ويأمرنا بالتفكر في الحِكم في خلق الإنسان، والنظام المعجز في الكون، وآيات الله أي مظاهر قدرته، وتجليات عظمة الخالق وسلطانه المطلق في هذا الكون.

وينبِّه الله تعالى المؤمنينَ في القرآن الكريم بقوله:

أفلا تتفكرون؟ أفلا يعقلون؟ أفلا يتدبرون؟ أفلا يبصرون؟.[٢]

ويلفت أنظارهم إلى المخلوقات فيقول:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[٣].[٤]

---

٢ انظر: البقرة، ٢١٩، ٢٦٦؛ النساء، ٨٢؛ الأنعام، ٥٠؛ الأحزاب، ٢٧.

٣ الغاشية: ١٧.

٤ إن الله ﷻ بمقتضى اسمَيه «البارئ» و«المصوِّر» قد خلق مخلوقاته بأشكال وصور متنوعة، وأنعمَ على كل مخلوق بقدرات تلائم الظروف التي يكون فيها والوظيفة التي سيؤديها. ومن أوضح الأمثلة الجملُ وما عنده من صفات، فقد جعل المولى ﷻ له سناماً يحفظ فيه الماء ليكفيه أسابيع، لأنه يعيش في الصحاري حيث لا زرع ولا ماء. ويستطيع الجمل الذي يتغذى على النباتات حتى التي بها أشواك أن يحتفظ بها طازجة لمدة طويلة. وقد خلقه المولى ﷻ قادراً على مواجهة العواصف

ويلفت أنظارهم إلى الطبيعة وما فيها فيقول:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾[5]

ويقول جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[6]

ويلفت أنظارهم إلى التاريخ فيقول:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[7]

فالحق عَزَّ وَجَلَّ يدعونا نحن عباده إلى التفكر بكل وسيلة، ويريدنا أن نفهم القوانين الإلهية، وسننه التي هي شرط لتجلي تلك القوانين.

الرملية في الصحراء والحرارة العالية. ولا ريب أن هذا المثال واحد من أمثلة لا تُحصى تذهل العقول وتدل على علم الله وقدرته وإبداعه.

٥ ق: ٦.

٦ يونس: ١٠١؛ انظر أيضاً: الغاشية، ١٧-٢٠؛ النور، ٤٣؛ الرعد، ٣؛ النحل، ٦٥؛ الروم، ٥٠؛ الأنبياء، ٣١.

٧ محمد: ١٠.

ويريد ربنا سبحانه وتعالى من الإنسان أيضاً أن يشاهد الكون ليس بنظرة فارغة غير مدركة، بل ببصيرة تدرك المقاصد والحِكَم؛ لذلك فإنه بعدما يذكر النعم في القرآن الكريم يقول:

﴿...**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ**﴾ [8]

﴿...**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ [9]

فالله ﷻ يؤكِّد على أن نتفكر في أنفسنا وفي الطبيعة، وقد أمرنا في نحو من مئة وخمسين موضعاً في القرآن الكريم بأن نتفكر في عظمته ومظاهر قدرته، من أجل ذلك استعمل مفاهيم مثل: «**التعقل**، و**التدبر**، و**التذكر**، و**التفكر**».

ولعل أفضل منهج للتربية المعنوية يطبق هذه المفاهيم في الحياة على أفضل صورة إنما هو التصوف. فالتصوف منهج للارتقاء المعنوي يسعى للوصول إلى ذرى الحقائق على قدْر استعداد المرء المعنوي وفضل الله عليه. ومن أجل ذلك تعدُّ حكمة: «**من عرف نفسه فقد عرف ربَّه**» من أهم أسس أهل التصوف في طريق الارتقاء المعنوي.

---

8 آل عمران: ١٣.

9 الحشر: ٢.



وما من ذرة في الكون إلا تُذَكِّر أصحاب القلوب الحية بخالقهم وقدرته المبدعة. وكل شيء من أصغر الذرات إلى أكبر المجرات شاهدٌ على عظمة الخالق ﷻ.

وللمخلوقات لسان خاص يسمى بلسان الحال تبين بها مقاصدها على أوضح صورة، فإذا فهم المؤمن المخلوقات بلسان حالها، صار الحق ﷻ قِبلة قلبه مثلما أن الكعبة قِبلة جسمه.

يقول المولى ﷻ:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [١٠]

إن الإنسان الذي يتفكر في تجليات عظمة الخالق وقدرته حق التفكر يدرك عجزه أولاً ثم يكون في حال ذكر دائم بتسليم وطاعة، فيمتلئ قلبه بنور التقوى، وبالتقوى يصل التفكر إلى المستوى المطلوب.

إن قيمة الإنسان عند الله ﷻ لا تكون بشكله، ولا بهيئته، ولا بقدرته المادية؛ بل بدرجة الروحانيات في

١٠ آل عمران: ١٩١.

قلبه، وتطبيقه لأوامر الله وتجنب نواهيه. من أجل ذلك يقوِّي القرآن الكريم تفكر المؤمن بشعور إيماني راسخ، ويخلِّصه من حدود المادة والشهوة الضيقة ويوصله إلى آفاق الروحانية الرحبة. ويغدو تفكر المؤمن روحانياً حين يشاهد آيات الله في كونه فيعتبر بها. ومثل هذا التفكر العميق الذي يبلغ الذروة مصحوباً بتدبر القلب يكون أفضل مفتاح من مفاتيح الإيمان.

وأما الذي لم يقوِّي جانبه الروحاني، فإنه يبقى متعلقاً بمظاهر الحياة الدنيئة، ويرمي قدرته على التفكر إلى دوامة الرغبات المؤقتة الزائلة، فيقسو قلبه ويضعف إدراكه، فيسير وراء الأهواء الفانية بدلاً من أن يميل إلى الحق والخير، ثم يكون في آخر المطاف عبداً لهوى النفس وغوائلها. ولا يتفكر في أن الكفن الذي هو أخر ثوب في سوق الحياة سيلفُّه في يوم، وأن الموت سيهدم كل لذة فانية، وكل رغبة زائلة، وكل أهوائه العابرة.

وكما أن التفكر المدعوم بإيمان راسخ يمنح سكينة وسعادة دائمتين للإنسان، فإن البقاء داخل حدود العقل يزيد الطمع والأنانية، ويضعف القلب فيبتليه بالغفلة.



وكما أن بصمة الإصبع دليل على هوية المرء، فإن حال المؤمن في التدبر والتفكر هي هويته المعنوية. لذلك فإن أي مؤمن يريد أن يرتقي في الروحانيات، ويعيش عيشاً يليق بشرف الإنسانية ويلائم غاية خلقه، فلا بد أن يدخل في جو التفكر الذي أوضحه القرآن الكريم؛ لأن الخشوع في العبادات، والرقة في القلب، والود والصفاء في العلاقات مع الناس لا يمكن أن تتحقق إلا بالتفكر.

وعلى الرغم من الأهمية التي أولاها ديننا للتفكر والتدبر فإن الإنسان لغفلته التي تنشأ عن الانشغال بالهموم الدنيوية يعيش بعيداً عن التفكر والتدبر الحقيقي، لذلك ينسى الموت وحقيقة أن هذه الدنيا دار امتحان.

أما المؤمنون الذين يتزودون بالتقوى ويتعمقون في التفكر والتدبر-وهم قليلون- فإنهم يتجاوزون أهواء نفوسهم، ويدركون حقيقتهم الإنسانية بإيجابياتها وسلبياتها.

ويحيون حياتهم الظاهرة، لكنهم يدركون أن العيش الحقيقي إنما هو عيش الآخرة، فتصبح قلوبهم واسعة وصدورهم رحبة، ويدركون حقيقة هذه الدنيا، وهذه نعمة إلهية لا ينالها إلا أصحاب الإيمان الكامل.



فالمؤمن الذي يبلغ هذه المرتبة لا يرى الحياة الفانية نعمةً يُركن إليها ويُعتمد عليها، وتمسي أيام الدنيا في عينه مثل بكرة لا يُعلَم طولها فينتهي الخيط في أي لحظة.

ومع هذا فإن لأيام العمر أهمية عظيمة، لأنها البضاعة الوحيدة للفوز في الآخرة. فالمؤمن المدرك لهذه الحقيقة يعلم أنه إذا لم يعمل بقول الله تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾ [11]، فإن العاقبة ندامة أليمة. لذلك يتجنب الوقوع في هذه الندامة بتذكره دائمًا قول الله ﷻ:

﴿**وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [12]

وصفوة الكلام أن الله ﷻ يريد من المؤمن أن يدرك عظمته وأسرار هذا الكون الدقيق وحِكمه، فلا يركن إلى أي نعمة فانية، بل يحيا حياته على التقوى ويكون عبداً يليق بالدخول إلى جنة عرضها السموات والأرض.

---

١١ هود: ١١٢.

١٢ المنافقون: ١٠-١١.



قراءنا الأعزاء... سوف نسعى في كتابنا المتواضع هذا أن نقف على أهمية التفكر وفوائده وطرق تطبيقه، لأن التفكر كان واحداً من أعظم سنن نبيِّنا الكريم ﷺ.

وأتقدم في هذا المقام بالشكر إلى الدكتور مراد كايا ومحمد عاكف غوناي اللذَين أعاناني في إعداد هذا الكتاب، وأتضرع إلى الله ﷻ أن يجعل هذا العمل صدقة جارية في ميزان حسناتهما.

اللهم أصلح مشاعرنا وأفكارنا كلها، ووفِّقنا في بلوغ ذرى معرفتك ومحبتك، وفي عيش حياتنا على هذا النهج المبين! آمين

عثمان نوري طوباش

١٤٣٢/ ٢٠١٠

أسكدار–إسطنبول

حدود العقل

يولي الإسلام أهمية كبيرة للعقل إذ يجعله شرطاً من شرطَي التكليف،[13] ويذكِّر الإنسان بكل وسيلة لاستخدام العقل كما ينبغي. ومع هذا فإن يوضِّح أن قدرة العقل ليست مطلقة في إدراك حقائق الكون، لأن الله ﷻ لم ينعم بالقدرة المطلقة على أي من مخلوقاته.

إن قدرة العين على النظر والأذن على السمع محدودة، وكذلك قدرة العقل على الإدراك. وإذا كانت هناك مخلوقات كثيرة لا تُرى بالعين لأنها خارج حدود رؤية العين، وهناك أصوات لا تسمعها الأذن لأنها خارج حدود سمع العين، فإن هناك حقائق كثيرة لا يبلغها المرء لأنها خارج حدود إدراك العقل؛ وهذا يعني أن العقل وحده لا يكفي لبلوغ الحقيقة بتمامها .

١٣ الشرط الآخر: البلوغ.



ففلاسفة العقل مثلاً اعتقدوا أن قدرة العقل غير محدودة في الوصول إلى الحقيقة وإدراكها، إلا أنهم بذلك قد جرُّوا البشر الذين تأثروا بهم إلى حضيض البؤس والتعاسة بدلاً من السعادة التي كانوا يطلبونها.[١٤]

---

١٤ من الحوادث المشهورة التي تُظهِر ضعف العقل حادثة جرت أيام الإغريق. إذ أراد أحد الشبان أن يطلب العلم، فأتى أحد أشهر الفلاسفة السفسطائيين آنذاك. واتفقا على أن يدفع الطالب نصف الأجرة، أما النصف الآخر فيدفعه إن ربح أول قضية، أي حينما يُكمل تعليمه، فيكون من حق الأستاذ حينها أن يأخذ النصف الآخر.
ومرت الأيام، وصار الطالب سفسطائيًّا كبيرًا. غير أنه رأى النصف الأول من المبلغ كافيًا، فأبى دفع النصف الآخر، فكانت قضيته الأولى مع أستاذه.
ومَثُلا أمام هيئة القضاة، فقال الطالب: «إنني لن أدفع شيئًا سواء أربحت القضية أم خسرتها»، فسأله القاضي: «ولمَ؟»
فأجاب: «إن حكمت لي بربح القضية فلن أدفع شيئًا؛ وكذلك إن خسرتها، لأننا اتفقنا على عدم دفع المبلغ إن خسرت أول قضية».
ثم قال الأستاذ الفيلسوف: «إنني سآخذ المبلغ سواء أربحت القضية أم خسرتها». فسأله القاضي: «ولمَ؟»
فأجاب الأستاذ: «إن حكمت لي بربح القضية، فسآخذ المبلغ؛ وإن خسرتها، فإن طالبي سيربح القضية، وعليه فإن شرط دفع النصف الآخر سيتحقق».
نرى في هذه الحادثة أن كلا الادعاءَين لا يخلوان من المنطق والعقلانية، وهذا يعني أن العقل قد يسجن نفسه أحيانًا داخل الجُدر التي أقامها، فيدخل متاهات تضيِّعه. وكيف لعقل يعجز عن حل كثير من الخلافات البشرية أن يستطيع إدراك الحقائق الإلهية التي لا تُحصَى ويفهمها؟ لهذا فإن سلامة العقل من المهالك ترتبط بتربيته بالوحي الإلهي وتسليمه أمام الحقائق التي تتجاوز حدوده.

ومما لا ريب فيه أن الله ﷻ يعلم صفات عباده الذين خلقهم أكثر منهم أنفسهم، وقد أرسل ﷻ نحو مئة وأربعة وعشرين ألف نبي ورسول- وفقاً للروايات- على مدى التاريخ لتجنب ضعف العقل وعجزه عن الوصول إلى الحقيقة، وكانت الصحف والكتب التي أوحى الله ﷻ بها إلى الرسل والأنبياء خير معين في توصيل البشر إلى الحقيقة.

لذلك فإن تربية العقل بالوحي الإلهي تعدُّ شرطاً لا بد منه، لأن العقل الذي لم يتربَّ على ضوء أوامر الله ونواهيه يكون كحصان جامح لا يوصل صاحبه إلى الهدف، وقد يلقيه إلى الهاوية ويعرِّضه للهلاك. وإذا كان من الضروري ترويض هذا الحصان بوضع اللجام عليه للاستفادة منه على أكمل وجه، فإنه من الضروري أيضاً تهذيب العقل بالتربية المعنوية التي قوامها الوحي الإلهي والسنة المطهرة التي هي شرح وتوضيح للوحي حتى يصل إلى مرتبة العقل السليم، وإلا فإنه يغدو سلاحاً ذي حدَّين، فإما أن يكون وسيلة للخير أو وسيلة للشرِّ.

وظيفة القلب

الإيمان في الإسلام إقرارٌ باللِسان وتصديقٌ بالقلب؛ أي إن المحل الأصلي لتجلي الإيمان إنما هو القلب مركز



الشعور والإحساس لا العقل. وهذا الأمر عظيم الأهمية، لأن الإيمان إحساس سام، أما العقل فليس إلا وسيلة لازمة في تجاوز بعض المراحل في أول الأمر.

والحقائق الإلهية المقبولة عقلاً والمُصدَّقة ذهناً إذا لم يتبعها تصديق بالقلب فلن تنتج إيماناً حقيقياً، وما لم يستقر الإيمان في القلب فلن يتحول إلى عمل، ولن يستقيم السلوك والمعاملات، وليس لهذا قيمة عند الحق ﷻ الذي شبَّه مَن يعرفون الحقائق الإلهية ولكن لا يدركون كنهها ولا يعملون بها لغفلة في قلوبهم بالحمار الذي يحمل الكتب فقال ﷻ:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [١٥]

لهذا فإن معرفة الحقائق الإلهية ليست تكديس تلك الحقائق في الذهن، بل حل أسرار النظام الكبير الموجود في الكون عن طريق التفكر والتدبر، والعمل بمقتضى تلك المعرفة؛ ولا يعمل بذلك إلا ذو قلب يستنير بنور الإيمان.

---

١٥ الجمعة: ٥.



والنتيجة التي يبلغها العقلُ عندما يتفكر في الإنسان والكون والقرآن- الذي هو مرآة للحقائق التي فيهما- تشبه المعادن الخام التي تُستخرَج من باطن الأرض، أما من يحوِّل هذه المعادن إلى وسائل مفيدة فهو القلب.

إن القلب مركز الأحاسيس والمشاعر، وأعمال القلب التي تُوصَف بالحدس والإلهام والسنوحات تضمن إدراك الحقيقة إدراكاً تاماً بجمع الأدلة التي يقدمها العقل، كالذي يجمع قطع المزهرية المنكسرة ليظهر شكلها الأصلي.

فإذا أراد الإنسان أن يصل إلى الحق والخير بأكمل وجه، فعليه أن يربي عقله بالوحي الإلهي ويدرك نقصان العقل وعجزه، وذاك لا يكون إلا بقلب بلغ كمال الإيمان.

وتتعلق قيمة التفكر بالقلب، فلا بد من التوازن بين أعمال القلب والعقل. وإذا اهتم الإنسان بعقله، يستطيع أن يكون رجلاً ناجحاً في الدنيا يعرف كيف يجني ثمار عمله، لكن لا بد له إذا أراد أن يكون مؤمناً حقاً أن يربي قلبه تربية معنوية ليكون مرشداً لعقله. لأن القلب الذي هو مركز الأحاسيس يوجِّه تفكر العقل والتفكر يوجه الإرداة. وهذا يعني أن الباعث الأساسي في الأفعال الإرادية إنما هو القلب والأحاسيس التي استقرت فيه.



لذلك فإن وضع القلب في إطار أوامر الله ونواهيه أولى من وضع أي عضو آخر.

فالعقل إذا اتبع هوى النفس وتعرض لأمراض القلب مثل الغرور والكِبر وحُرِمَ من إرشاد قلب سليم، خرجَ التفكر عن مجراه الصحيح، وجرَّ الإنسان إلى الضلال مثلما يفعل الشيطان.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«لو كانت للشيطان محبة في قلبه بقدْر عقله لما لُعِنَ اليوم».

فالعقل وحده لا قيمة له، وإذا أراد المرء توجيه العقل إلى الصراط المستقيم بأخذ زمامه، فعليه أولاً أن يُوصِل قلبه إلى الدرجة المطلوبة بالتربية المعنوية.

وصفوة الكلام أن التفكر الحقيقي يبدأ عند نقطة التقاء العقل الذي يستمد من نور الوحي الإلهي والقلب السليم الذي خضع للتربية الروحانية. ونحن عندما نستخدم كلمة «التفكر» في هذا الكتاب نقصد به شكله المقبول الذي رُبِّيَ بالحقائق الإلهية، وقُوّي باليقين في القلب.

إن التفكر من حيث معنى الكلمة هو التعمق والتمعن في شيء لأخذ العبرة منه.



والتأمل هو دوام التفكر، وإمعان النظر، والتدقيق الجيد في الحوادث والكون لأخذ العبرة والنصيحة والوصول إلى الحقيقة.

أما التدبر فهو التفكير في نتائج أمر وعاقبته.

أهمية التفكر

توجد في كتاب الله ﷻ وفي أحاديث رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام كثير من الأوامر والحث في مسألة البحث والتدقيق والتفكر والاعتبار؛ ونذكر مثالاً الآيتين التاليتَين من مئات الآيات الكريمة في هذا الشأن، يقول الحق ﷻ:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [١٦]

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [١٧]

---

١٦ الروم: ٨.

١٧ سبأ: ٤٦.

إن الله تعالى يوصي الناس في الآية السابقة الناس أن يعبدوه فرادى أو جماعات ويتفكروا في الحقائق،[18] ويعدهم بالفلاح إذا طبَّقوا هذه الموعظة فقط.

كان رسول الله ﷺ دائم التفكر

كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يحب الصمت والتفكر كثيراً، وازداد رغبةً في الخلوة والعزلة قبيل بعثته. فكان يذهب إلى غار حراء الذي يَبعد عن مكة المكرمة نحو خمسة أكيال ويبقى هناك أياماً. وكانت عبادته عليه الصلاة والسلام في عزلته التفكر والمشاهدة والاعتبار والتدبر في ملكوت السموات والأرض مثلما كان يفعل جده إبراهيم عليه السلام.[19] فكان الله عز وجل بهذه الصورة يعده للمهمة المقدسة التي سيُكلَّف بها.

١٨ إن فكر المجتمع والأغلبية يؤثر بصورة عامة في فكر الفرد، والطريقة التي يتخلص بها الفرد من هذا التأثير وإيجاد الحقيقة تكون بالعودة والرجوع إلى أهل الإرشاد، والتفكر مع استفتاء القلب. ونفهم من الآية الكريمة أن الأحكام التي يطرحها العقل الجماعي ليست صحيحة أو قريبة من الصواب كل حين. لذلك ينبغي لكل فرد أن يكون له فكره المستقل، وأن ينقد بصراحة وأسلوب حسن مثل تلك الأفكارَ الجمعية ويصل إلى الفكر الصحيح المستقل.

١٩ العيني، عمدة القارئ، ٦١، ١٤، ١٢٨.



وظلَّ النبي ﷺ بعد تلك المرحلة يتفكر في هذا الكون وخالقه طول عمره. قال هند بن أبي هالة رضي الله عنه:

«كان رسول الله عليه الصلاة والسلام... متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل الصمت يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم».[20]

وكان النبي ﷺ يحث أمته على التفكر فيقول:

«**أمرني ربي بتسع** [وذكرَ منها] **وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً**».[21]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«**لا عبادة كالتفكر**».[22]

«**كونوا في الدنيا أضيافاً، واتخذوا المساجد بيوتاً، وعودوا قلوبكم الرقة، وأكثروا التفكير والبكاء، ولا تختلفن بكم الأهواء...**».[23]

---

٢٠ ابن سعد، الطبقات، ١، ٤٢٢-٤٢٣.

٢١ الجزري، جامع الأصول، ١١، ٦٨٧/ ٩٣١٧.

٢٢ البيهقي، شعب الإيمان، ٤، ١٥٧.

٢٣ أبو نعيم، حلية الأولياء، ١، ٣٥٨؛ السيوطي، جامع الأحاديث، رقم: ١٥٨٤٣.



وحين سئل النبي ﷺ عن صحف إبراهيم قال:

«... وكان فيها أمثال: على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه عز وجل، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فيها في صنع الله تعالى، وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب..».[٢٤]

وكان لقمان عليه السلام يحب أن يخلو بنفسه ويطيل الجلوس وحده فلما سُئل عن ذلك قال:

«إن طول الوحدة أفهم للفكر، وطول الفكر دليل على طريق الجنة».[٢٥]

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول:

«تفكر ساعة خير من قيام ليلة».[٢٦]

ولما سُئل سعيد بنُ المسيِّب: أيُّ العبادة أفضلُ؟ قال:

«التفكر في خلقه، والتفقه في دينه».[٢٧]

وقد عبَّر بشر بن الحارث الحافي عن أهمية التفكر بقوله:

«لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه».[٢٨]

---

٢٤ أبو نعيم، حلية الأولياء، ١، ١٦٧.

٢٥ الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤، ٤٢٥.

٢٦ البيهقي، شعب الإيمان، ١، ٢٦١/ ١١٧/ ١١٨.

٢٧ البورصوي، روح البيان، تفسير سورة النور، آية ٤٤.

٢٨ ابن كثير، تفسير، ١، ٤٤٨، (آل عمران: ١٩٠)

لقد ذكرنا أن التفكر الذي يحمل المرء على إدراك عظمة الله تعالى نشاطٌ عقلي، والذي يوصل هذا النشاط إلى النتيجة المطلوبة إنما هو القلب. والقلب أشرف أعضاء الجسم، فلا ريب أن يكون عمله أفضل من أعمال الأعضاء الأخرى؛ لأن القلب محل نظر المولى ﷻ.

والحقُّ أن تفكر العقل الذي تربى بالوحي الإلهي هو الأساس للأنوار التي تنير القلب، والوسيلة الوحيدة التي توصِل إلى البصيرة ومعرفة الله حق معرفته. ومثل هذا التفكر وسيلةٌ للعلم، والزهد، وترك المعاصي، ونيل المحبة الإلهية.

وأفضل أنواع التفكر التفكرُ في قدرة الله وعظمته وسلطانه، عندها يفكر المرء في إصلاح حياته في الدنيا، وترك كل ما يضرُّ آخرته.

وعندما يفكر في نِعم الله تعالى وإحسانه وأوامره ونواهيه وأسمائه وصفاته، تنبت بذور المحبة ومعرفة الله في قلبه ويرتقي في الدرجات الروحانية. وعندما يدرك أن الآخرة دار شرف وبقاء، وأن الدنيا دار امتحان وفناء، تزداد رغبته في الآخرة، فلا يعطي الدنيا قيمة إلا بقدْرها. ويعلم حينها أن الحياة الدنيا أيام تنقضي بسرعة وأن المسافة بين



المهد إلى اللحد قصيرة. ويزيد من سعيه الدؤوب في أن يجعل عمره أكثر بركة، مدركاً أن هذا العمر أفضل بضاعة لنيل السعادة في الآخرة. ويعرف أن أوقاته غنيمة فيستغلها على أفضل صورة في أعمال الصالحة.

وما أجمل قول السيد أبي الحسن الخرقاني:

«ينبغي للمؤمن أن يكون مشغولاً بالله ﷻ دائماً بعضو من أعضائه، إما يذكر الله تعالى في قلبه أو يذكره بلسانه أو ينظر بعينه إلى شيء أحلَّه الله، أو يجود بيده، أو يزور الناس بقدميه، أو يقدم خدمة للمؤمنين برأسه، أو يدعو بيقين، أو يحاول الوصول إلى معرفة الله تعالى متفكراً بعقله، أو يعمل عملاً بإخلاص، أو ينذر الناس من أهوال يوم القيامة».[٢٩]



---

٢٩ أبوالحسن الخرقاني، رسالة السير والسلوك، إسطنبول، ٢٠٠٦، ص ١٠٧.
Ebu'l-Hasan Harakânî, Seyrü Sülûk Risâlesi, haz. Sadık Yalsızuçanlar, sf. 107, Sufi Kitap, İstanbul, 2006.





التفكر في الكون

ما أعجب الإنسان يحار ويُدهَش إذا ما رأى قصراً مزخرفاً مزيناً، فلا يستطيع أن ينساه، ولا يفتأ يتحدث عن جماله طوال حياته. ولكنه لا يقف عند هذا الكون العظيم الذي هو معجزة إلهية، ولا يتفكر- كما ينبغي- في بديع صنعه ولا يتحدث بما يكفي عنه. ومن لا يقف على مثل تلك الأشياء ولا يمعن النظر فيها يكون مثل الأحجار الصلبة التي لا تتأثر بأمطار الربيع المباركة. مع أن ذلك القصر الفاني الذي أصاب الإنسان بالحيرة والدهشة إنما هو ذرة من ذرات هذه الأرض التي هي من أصغر جسيمات هذا الكون المعظم المعجِز.

التفكر في الكون

إن كل شيء في الكون من الذرات إلى المجرات إنما هو إبداع المولى ﷻ. وهذا الكون بتجليات الحكمة الكثيرة في كل نواحيه كمعرض للوحات تُظهِر لعقل الإنسان عظمة الخالق وقدرته.

والكون بخلقه ونظامه وتوازنه وسيلةُ اعتبار وتدبر مهمةٌ لأهل التفكر. وثمة آيات كثيرة تعبر عن هذا المعنى منها قول الحق ﷻ:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ. وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [٣٠]

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [٣١]

---

٣٠ ق: ٦ – ٨.

٣١ الزمر: ٢١.



فالماء الذي يبقى على وجه الأرض ينفع الناس، إذ يستخدمونه في مأكلهم ومشربهم ولنظافتهم وقضاء حوائجهم، ثم يطهِّر الله ﷻ هذا الماء إذا تلوث بنظام دقيق ويعيده لهم.

وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي عندما يتحدث عن وجوب التفكير في تحول الماء:

«عندما لا يبقى للماء صفاء ونقاء، أي عندما يتعكر، ينزعج مثلنا من تلوثه ويقف متحيراً، فيتضرع ويبتهل إلى الله ﷻ، وبعد هذه التضرعات والابتهالات يبخِّره الله ﷻ ويرفعه إلى السماء. هنالك يسوقه إلى دروب مختلفة فينقيه، ثم يبعثه إلى الأرض مطراً أو ثلجاً أو برَداً، ثم يوصله في النهاية إلى بحر واسع».

وقد أشار مولانا جلال الدين إلى هذه الحادثة الطبيعية التي يراها المرء في كل وقت لكي يعتبر منها، وقال:

«أيها الإنسان، طهِّر قلبك من الأدران بطلب مرضاة الله ﷻ مثلما يتطهر الماء في السماء، وكن أيضاً مثل المطر الذي ينشر البركة والرحمة».

وبحسبِ الإنسان كي يدرك أن كل شيء أثر من آثار قدرة الله المطلقة أن يتفكر في هذا الكون ونظامه الدقيق



الذي لم يتغير قيد أنملة منذ خلقه، ويتدبر في الحِكَم والأسرار المليئة فيه.

التفكر في السموات

ومن دلائل قدرة الحق ﷻ وعظمته ملوكتُه الذي يُعرَض في السموات والأرض. وعدم التفكر في عجائب السموات يحرِم المرء من إدراك الحكِم الكثيرة فيها.

فالكرة الأرضية إن قورِنَت بالسموات، فما هي إلا كقطرة في بحر، لا بل أصغر منها. ويذكر الله تعالى في كثير من آيات القرآن الكريم عظمَة السموات، ويقسم في مواضع كثيرة بها، منها قوله ﷻ:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [32]

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [33]

إن سعة الكون وحركة الأجرام فيه والمسافات التي بينها تُعبَّر بأرقام كبيرة تفوق قدرة الإنسان حتى خياله، لذلك لم يجد العلماء مفراً إلا أن يقولوا:

---

٣٢ البروج: ١.

٣٣ الواقعة: ٧٥ – ٧٦؛ انظر أيضاً: الذاريات، ٧؛ النجم، ١؛ التكوير، ١٥؛ الطارق، ١؛ الشمس، ١، ٢، ٥.

«إن الكون مخيف محيِّر كبير أكثر مما نتخيل، لأن الأجسام في الفضاء يتباعد بعضها عن بعض بسرعة رهيبة».[٣٤]

ويقدر علماء الفضاء نصف قطر الكون بـ ١٤ تريليون سنة ضوئية، ومن المعلوم أن سرعة الضوء تبلغ نحو ٣٠٠٠٠٠ كم في الثانية الواحدة.

المجرَّات

توجد في الفضاء مئة مليار من المجرات التي يمكن رؤيتها بأجهزة المقراب الحديثة. والمجرَّة تجمع نجمي عملاق يضم ما بين عشرة ملايين نجم إلى مليار نجم والمواد الخامة لتلك النجوم وما تبقى منها. ومجرة «درب التبانة» التي بها نظامنا الشمسي إنما هي واحدة من تلك المجرات.

يُطلق على تجمع مئات أو آلاف من المجرات اسم «العنقود المجري» ويُطلق على تجمع العناقيد المجرية اسم «العناقيد المجرية العملاقة».

ومجرة درب التبانة التي يوجد بداخلها نظامنا الشمسي والمجرات الثلاثون القريبة منها يُشكلن «عنقودًا مجريًا صغيرًا». أما «عنقود العذراء المجري» القريب من عنقودنا المجري والذي يقع على بُعد ٦٥ مليون سنة ضوئية تقريباً

٣٤ يوسف الحاج، موسوعة الإعجاز العلمي، ٤١٣.



فيضم نحو ٢٠٠٠ مجرة. ويبلغ قطر العنقود المجري العملاق نحو ١٠٠ مليون سنة ضوئية.

ومن الآيات التي تدل على العظمة الإلهية في الكون «تصادم المجرات». وتصادم المجرات حادثة من الحوادث تصادفنا كثيراً؛ وذلك عندما يتقاطع مسار مجرتين، أو تقترب إحداهما من الأخرى بالقدْر الكافي، فتقوم الجاذبية الضخمة لكل منهما بجذب إحداهما إلى الأخرى. وعلى الرغم من أن المجرات تحتوي على مليارات النجوم، إلا أن النجوم أثناء التصادم تمر وتعبر دون أن تتماس، أو يصطدم واحد منها بالآخر، لأن المسافات كبيرة بينها، ولكن المادة التي تبني النجوم والتي تتكون من الغاز والغبار تتراكم في أماكن معينة بتأثير هذا التصادم، وهذا ما يعجِّل تكوين النجوم، وهذا ما يجعلنا نرصد أثر انفجارات في تكوين النجم أثناء تصادم المجرات. ويُعتقد أن تصادماً كهذا سوف يحدث بعد ثلاثة مليارات سنة بين مجرة درب التبانة والمجرة المجاورة لها وهي مجرة «المرأة المُسلسلة»، لأن كلًّا منها تقترب من الأخرى بسرعة تبلغ ٥٠٠ ألف كم في الساعة تقريباً وتبلغ المسافة بينهما ٢,٢ مليون سنة ضوئية، لهذا فإن تصادمهما سيكون بعد ثلاثة مليارات سنة تقريباً.



ويوجد نحو ٢٠٠ مليار نجم في مجرة درب التبانة، والشمس واحدة من تلك النجوم. ويبلغ قطر مجرة درب التبانة ١٠٠ ألف سنة ضوئية، وتدور حول نفسها بسرعة ٢٧٤ كم في الثانية، وتتحرك مباشرة نحو نجم «النسر الواقع» بسرعة ٩٠٠ ألف كم.

أما «عنقود هرقل المجري» فيتكوَّن من ١٠ آلاف مجرة صغيرة، ويبعد عن كرتنا الأرضية ٢٥ ألف سنة ضوئية.

النظام الشمسي

يبلغ قطر النظام الشمسي الموجود في مجرة درب التبانة ١٢ مليار كم. ويقدَّر عمر الشمس بـ ٤,٥ إلى ٥ مليارات سنة. وتبعد الشمس عن مركز المجرة ٣٠ ألف سنة ضوئية.

وفي الشمس يتحول ٥٦٤ مليون طن من غاز الهيدروجين إلى ٥٦٠ مليون طن من غاز الهيليوم في كل ثانية. أما الأربعة ملايين طن التي تكوِّن الفرق بينهما فتنتشر على شكل ضوء وطاقة. ولو أردنا أن نحسب كتلة الشمس عن طريق ما تفقده من ملايين الأطنان فإنه يمكن القول: إن الشمس تفقد أربعة ملايين طن من المادة كل ثانية، و٢٤٠ مليون طن في الدقيقة. ولو أن الشمس تنتج

طاقة بنفس السرعة والمعدل منذ ٣ مليارات سنة، فإن مجموع ما فقدته من كتلتها خلال هذه المدة سيبلغ ٤٠٠ مليار ضرب مليون طن «أي رقم أربعة وأمامه سبعة عشر صفراً»، إلا أن هذه القيمة لا تساوي من كتلة الشمس الحالية إلا أقل من واحد من ٥٠٠٠.

وتبلغ درجة الحرارة على سطحها ٦٠٠٠ درجة مئوية، أما في مركزها فتبلغ ٢٠ مليون درجة مئوية. والشمس تتمدد وتزداد حرارتها دائماً، وقد تنفجر بسبب هذا التمدد الدائم، ويمكن حينها أن تمحو الكواكب القريبة منها مثل عطارد والزهرة والأرض والمريخ.

وتبلغ كتلة الشمس ٢ ×١٠ ^٢٧^ طن، أما نصف قطرها فيبلغ ٧٠٠ ألف كم. وحجمها أكبر من حجم الأرض بـ ٣٢٤,٥٢٩ ضعفاً.[٣٥]

يقول الحق ﷻ:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾[٣٦]

---

٣٥ انظر: يوسف الحاج، موسوعة الإعجاز العلمي، ٤١٣-٤١٧؛ أكرم أحمد إدريس، الفلك والطب أمام عظمة القرآن، ١٩٠-٢١١.

٣٦ الفرقان: ٦١.



السموات تتمدَّد باستمرار

لقد أشار الله تعالى إلى أن السماء التي بناها تتمدد باستمرار فقال ﷻ:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [٣٧]

وقد اكتشف العلماء في عام ١٩٢٩م تباعد السدم[٣٨] عن مجرتنا، وبعد ذلك الاكتشاف طرحوا نظرية تمدد الكون باستمرار.[٣٩] ويرى أصحاب هذه النظرية التي أصبحت من أهم الاكتشافات العلمية في القرن العشرين أن المجرات يتباعد بعضها عن بعض بسرعة تزداد وتتناسب طردياً مع المسافات بينها.[٤٠]

وفي عام ١٩٥٠م طبق العلماء هذا القانون، واستطاعوا أن يحسبوا سرعة تباعد المجرات فوجدوا أن المجرة التي تبعد عنا ١٠ ملايين سنة ضوئية تتباعد عنا بسرعة ٢٥٠

---

٣٧ الذاريات: ٤٧.

٣٨ السدم: سحابة من الغبار تحوي العناصر التي تبنى منها النجوم والنظم الشمسية.

٣٩ انظر: زغلول النجار، السماء، ٨٢-٩٣.

٤٠ شاكر كوجاباش، الخلق في القرآن، إسطنبول ٢٠٠٤، ص ١٩.

«Şakir Kocabaş, Kur'ân'da Yaratılış, İstanbul 2004 .s19»

كم في الثانية، والمجرة التي تبعد عنا عشرة مليارات سنة ضوئية تتباعد عنا بسرعة ٢٥٠ ألف كم في الثانية.[٤١]

إن الكون الذي نتحدث عن اتساعه وتمدده يُظهر لنا أنه من المحال أن ندرك عظمة الله تعالى وأن نحيط بها بصورة تامة.

وهذا الكون العظيم سينتهي كما بدأ. يقول الحق عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٤٢]

ويوم القيامة يتغير حال ذلك الكون، يقول الحق عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[٤٣]

وهذا يعني أنه سيُخلق عالَم جديد وتبدأ حياة جديدة.[٤٤]

---

٤١ الأستاذ د. عثمان تشاكماك، الكون كان ذرة، ص ٢٨.

«Prof. Dr.Osman Çakmak, Bir Çekirdekti Kainat,s28»

٤٢ الأنبياء: ١٠٤.

٤٣ إبراهيم: ٤٨.

٤٤ انظر: زغلول النجار، السماء، ص ٨٢، ١٠٥ – ١٠٦.



السموات السبع

يذكر المولى ﷻ السموات السبع في آيات القرآن الكريم. وإذا كان كل ما ذكرناه إلى الآن يتعلق بالسماء الأولى أو السماء الدنيا، فكيف للإنسان أن يعقل السموات الأخرى أو يدركها؟ يقول الحق ﷻ:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ. وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [٤٥]

والآن ارفعْ رأسك وانظرْ بعين الاعتبار إلى السماء، وتفكرْ في تلك الأجرام السماوية التي لا تُعدُّ ولا تُحصَى وهي تدور في نظام بديع وكلها تحمل كثيراً من الأسرار والحِكَم.

ولولا دوران الأرض حول نفسها لكان نصفها منيراً دائماً والآخر مظلماً، ولتعذَّر تمييز وقت العمل عن وقت الراحة.

---

٤٥ الملك: ٣-٥.



وفي دوران الأرض حول نفسها في مدة أربع وعشرين ساعة حكمٌ كثيرةٌ. فلو كانت مدة دوران الأرض أطول من ذلك، لكانت الأرض مثل كوكب عطارد الذي يبلغ الفرق في درجة الحرارة بين ليله ونهاره ألف درجة مئوية، ولزادت الحرارة في النهار الطويل، وقلَّت في الليل الطويل حتى يتجمد كل مكان في الأرض.

وفي ضوء هذه الحقائق انظرْ كيف جعل الله تعالى الليل يغشى النهار؟ وكيف جعل الليل وسيلة للراحة والنهار للمعيشة؟ وفكِّرْ في تجليات القدرة والرحمة الإلهية في تعاقب كل منهما بلا أي خلل أو خطأ.

ولو لم تكن الأرض تدور حول الشمس، ولم تكن درجة ميل الأرض في ذلك الدوران تبلغ نحو ٢٣ درجة، لما كانت هناك الفصول الأربعة لا الصيف ولا الشتاء ولا الربيع ولا الخريف. ولو لم تكن درجة الميل على هذا النحو الدقيق لضاع بخار الماء الذي يرتفع من المحيطات، ولصارت كل القارات قطعاً من الثلج.

ولو لم تكن المسافة بين الأرض والقمر على ما هي عليه الآن، أي لو زادت مثلاً ٥٠ ألف ميلًا، لتحول المد والجزر الذي نراه على الأرض كل يوم إلى كارثة، ولغطَّت



المياه كل القارات مرتين كل يوم، وحتى الجبال كانت ستتآكل في مدة قصيرة وتنمحي من الوجود.[٤٦]

فلا تكتفي بالنظر إلى عظم هذا الكون وكثرة نجومه، بل فكِّرْ كيف خلقها الخالق ﷻ ونظَّمها، وجعل هذه النجوم والأجرام العملاقة تتعلق في السماء بغير عمد!

وسَلْ نفسك هل أصاب الشمس أو القمر أي عطل يوماً؟ وهل احتاجا للإصلاح مرةً؟ وهل خرج يوماً جرم من ملايين الأجرام في الكون عن مداره الذي قدَّره الله ﷻ له، أو توقف واصطدم بآخر من غير تقدير الله ﷻ كما يحدث في حوادث المرور عندنا؟!

ترك التفكر ذنب كبير

ما أعجب الإنسان يحار ويُدهَش إذا ما رأى قصراً مزخرفاً مزيناً، فلا يستطيع أن ينساه، ولا يفتأ يتحدث عن جماله طوال حياته. ولكنه لا يقف عند هذا الكون العظيم الذي هو معجزة إلهية، ولا يتفكر- كما ينبغي- في بديع صنعه ولا يتحدث بما يكفي عنه. ومن لا يقف على مثل تلك الأشياء ولا يمعن النظر فيها يكون مثل الأحجار

---

٤٦ انظر: علم- أخلاق- إيمان، إعداد: مصطفى رحمي بلابان، ص ١٨٧.
«Bkz. İlim-Ahlâk-Îman, Derleyen: M. Rahmi Balaban, s187»

الصلبة التي لا تتأثر بأمطار الربيع المباركة. مع أن ذلك القصر الفاني الذي أصاب الإنسان بالحيرة والدهشة إنما هو ذرة من ذرات هذه الأرض التي هي من أصغر جسيمات هذا الكون المعظم المعجِز.

إن مَثَل الإنسان الغافل عن التفكر في قدرة الله ﷻ كمثَل نملة بنت لها بيتاً في أحد قصور الملك العالية الجدران المتينة الأساس المزينة بأجمل الأشياء والكثيرة بالخدم. فخرجت يوماً من بيتها والتقت بأصدقائها فلم تقص عليهم شيئاً سوى البيت الذي تعيش فيه! وظلت بعيدة عن التفكر في القصر الذي تعيش فيه، وقوة الملك الذي بناه وعظمته. ومثلما غفلت النملة عن ذلك القصر فإنها قد غفلت أيضًا عمن يعيشون فيه.

فالإنسان الغافل ليس عنده خبر عن بدائع الصنعة الإلهية وعن الملائكة وعباد الله الخواص الذين يعيشون في ملكه.

إن النملة ليست لديها القدرة على إدراك القصر الذي تعيش فيه، والجماليات التي يحتويها. لكن الإنسان يستطيع أن يطوف بعوالم كثيرة عن طريق التفكر والتخيل، ويدرك بدائع صنع الله، ويشعر بفقره وعجزه أمام نعمه التي لا تعد ولا تحصى فيشكره ويخر له ساجداً. ولا يفعل ذلك



إلا مَن كان «إنساناً»، أي- بعبارة أخرى- لا يستحق شرف الإنسانية وعزتها إلا من فعل ذلك. إذ التفكر من فطرة الإنسان التي فطره الله ﷻ عليها، ولو ترك الإنسان شعلة التفكر التي لديه لتنطفئ وتخمد، فقد خان تلك الأمانة الإلهية، ولم يؤدِّ حقها، وحُرِم من أعظم صفات الإنسانية.

وقد عبر مولانا جلال الدين الرومي عن حال الغافلين الذين يعيشون بقلوب غليظة في هذه الدنيا التي هي مجمع الأسرار والحكم اللامتناهية، ويشاهدون الرسائل الإلهية في المخلوقات بوجه عابس، فقال:

«جاء ثور يوماً إلى مدينة بغداد مركز العلم والحضارة في زمانها، وعبر المدينة من أقصاها إلى أقصاها ولم ير شيئاً من جمال المدينة وعظمتها وفنونها المعمارية. لكنه رأى قشور الشمَّام والبطيخ على جانبي الطريق. ذلك لأن الشيء الذي يليق بثور أو دابة أن يرى التبن المرمي على الطرق أو الحشائش الممتدة على جانبيه».[٤٧]

وقد ورد في الأثر أن رجلاً في زمن موسى عليه السلام كان قد عبد الله تعالى ثلاثين سنة. وكان الله تعالى قد سخَّرَ له سحابة تحميه من حر الشمس. لم تأت تلك السحابة

٤٧ المثنوي، جـ٤، بيت ٢٣٧٧-٢٣٧٩. «Mesnevî, c 4, beyt: 2377-2379»



ذات يوم، فظل تحت حر الشمس المحرقة. وعندما سألته أمه عن السبب قائلةً:«أظنك ارتكبتَ ذنباً؟» قال: «لا، لم أرتكب ذنباً».

فقالت الأم: «هل نظرت إلى السموات وإلى الأزهار فلم تتفكر في عظمة الله تعالى وقدرته أو غفلت عن هذا؟»

فقال: «نعم يا أماه، لقد رأيت بدائع صنع الله تعالى حولي، ولكني قصرت في التفكر فيها».

وعندها قالت الأم: « يا بني! وهل هناك ذنب أعظم من هذا الذنب؟ فتُبِ الآن عنه».

لهذا على كل مؤمن عاقل ألَّا يترك فريضة التفكر طرفة عين. فالإنسان كلما أدركَ عجائب صنع الله تعالى وتفكر فيها، ازدادت معرفته بجلال الله تعالى وعظمته، ووصل إلى مرضاة الله تعالى. وقد قال علي رضي الله عنه:

«مَن قرأ القرآن وعلمَ شيئاً من علم النجوم، زاد إيمانه ويقينه». ثم قرأ قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [48]

---

٤٨ يونس: ٦.



إن كل مخلوق من مخلوقات الله تعالى يقوم بما حُدِّد له من وظائف وخدمات، ولم يدرك الإنسان إلا القليل من هذه الخدمات الجمة التي تقوم بها هذه المخلوقات. ولا ريب أن الحكم التي لم يفهمها ولم يدرك كنهها أضعاف أضعاف ما استطاع أن يفهمه ويدركه.

فالإنسان إذا استطاع أن يسمع فذلك بسبب الجهاز الذي أعده الله له وهو الأذن، ولو استطاع أن يرى ويميز الألوان فذلك لأن الله تعالى أنعم عليه بنعمة البصر. ولعل هناك تجليات إلهية كثيرة في عالَم المخلوقات، إلا أننا لا نعرفها لعدم وجود أجهزة مناسبة لها.[٤٩]

والإنسان الذي لديه عقل محدود لا يستطيع أن يحيط بالمخلوقات ولا بالخصائص التي فيها بصورة كاملة كيف له أن يدرك بالله ﷻ خالق هذه الكائنات كلها إدراكاً تاماً؟! لذا فإن علماء الاسلام الذين أدركوا بعضاً من

---

٤٩ إن الموجودات في الكون تنقسم عند علماء المسلمين إلى قسمين «جواهر وأعراض». فالجواهر الموجودات التي تقوم بنفسها وتستقل بالوجود، أما الأعراض فهي التي تقوم بالجواهر ولا تستقل بالوجود، مثل الألوان والروائح، فالألوان تُدرَك بالبصر، والروائح بالأنف. ولعل هناك أعراضاً أخرى للأجسام في الدنيا فلا ندركها لعدم وجود أجهزة مناسبة لها. وكذلك الأمر في الآخرة، إذ فيها مخلوقات بأعراض لا نستطيع إدراكها في الدنيا.

عظمة الخالق وتجليات صفاته أصابتهم الحيرة والدهشة حتى إنهم قالوا معبرين عن عجزهم: «عجزك عن إدراكه إدراك».

إذ ليس في مخلوقات الله تعالى أي تجل أو انعكاس من حقيقة ذاته، فكل شيء خلقه الله ﷻ خرج إلى عالم الوجود بتجليات صفاته، وهو لم يخلق مكاناً يستطيع أن يتحمل تجلي ذاته عليه. فموسى عليه السلام عندما ألح في الطلب أن يرى الله تعالى كان جواب المولى ﷻ على هذا الطلب وتلك الرغبة أن قال له كما جاء في الآيات الكريمة:

﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٥٠]

لذلك فإنه من الأولى للإنسان الذي يظل عاجزاً عن إدراك حقيقة صفاته سبحانه وتعالى إدراكاً تاماً ألَّا يخوض في موضوع حقيقة الذات.

---

٥٠ الأعراف: ١٤٣.

الغلاف الجوي

هناك أسرار وحكم كثيرة في الهواء الذي يحيط بالأرض، فالسحب التي تسير فيه، والرياح التي تهب شديدة تارة وخفيفة تارة أخرى، والرعد الذي نسمعه، والبرق الذي نراه، والأمطار التي تسقط، والثلوج التي تهطل، وغيرها من الظواهر كلها تتحقق بقدَر وحساب دقيق.

والقرآن الكريم يدعو الإنسان إلى التفكر في هذه الظواهر التي بين السماء والأرض، ويدعوه إلى رؤية الأدلة التي تشير إلى القدرة الإلهية فيها، يقول المولى عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٥١]

والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يُعَدُّ من الأنظمة الرائعة التي تدل على رحمة الله تعالى الواسعة على عباده. فالغلاف الجوي يتكون من ٧٨٪ من النيتروجين و٢١٪ من

٥١ البقرة: ١٦٤.

الأوكسجين و١٪ من غازات أخرى كثاني أكسيد الكربون والأرغون والهيدروجين وغيرها. ومن المعروف أن الأوكسجين سريع الاشتعال، فلو زادت نسبة الأوكسجين عن هذه النسبة بمقدار ١٪ لزاد احتمال حرائق الغابات نتيجة إحدى الصواعق بنسبة ٧٠٪. أما لو ارتفعت نسبة الأوكسجين فوق ٢٥٪ فإن ذلك يعني أن تحترق أغلب الأغذية النباتية التي نأكلها اليوم وتصير كومة من الرماد.

وهذا الغلاف الجوي يحافظ على توازن نسبتَي الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون في الهواء على الرغم من أننا نستعملهما باستمرار. فلو كان في الدنيا الإنسان والحيوان فقط لاسْتُهلكَ الأوكسجين كله وزادت نسبة ثاني أكسيد الكربون، وهذا يؤدي إلى تسمم الإنسان والحيوان وهلاكهما. ولكن القدرة الإلهية التي أوجدت هذا العالَم خلقت النبات الذي يستعمل ثاني أكسيد الكربون ويحوِّله إلى أوكسجين ليستمر هذا التوازن المدهش العظيم في العالَم، ولتستمر الحياة عليه.

ولو أن القشرة الأرضية كانت أثخن مما عليه، لامتصت الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون، ولَمَا نبتت النباتات.[٥٢]

٥٢ انظر: علم– أخلاق– إيمان، إعداد: مصطفى رحمي بلابان، ص ١٨٧.
«Bkz. İlim-Ahlâk-Îman, Derleyen: M. Rahmi Balaban, s187»

وتحتاج المليارات من عمليات التفاعل الحيوية التي تحدث في أجسامنا في كل لحظة إلى الأوكسجين، فالرئة تستنشق الهواء وتعيده بعد ذلك بصورة مستمرة. ووجود نسبة الأوكسجين في الغلاف الجوي بكثافة تتناسب تماماً مع التنفس دليلٌ واضحٌ على أن هذا الأمر قد تم بتدبير دقيق لا عبث فيه. فالله تعالى الذي خلق أجسامنا وجعلها تحتاج إلى الأوكسجين قد أكرمنا بهذه النعمة إكراماً عظيماً، فوضع الأوكسجين بأفضل نسبة في الهواء ليسهل الحصول عليه وأن نتنفسه على أفضل صورة؛ لذلك فإن كل نَفَس من أنفاسنا نعمة إلهية فيها عِبَر كثيرة.

وعندما نركب إحدى الطائرات التي صُنِعَت بأحدث التقنيات نسمع التحذير التالي:

«إذا ما انخفض الضغط في الارتفاعات العالية، فقمْ بوضع أقنعة الأوكسجين التي ستظهر آلياً أمامك».

ولا يخاف أحدنا أن ترتفع نسبة الأوكسجين فوق ٢١٪ أو تنخفض عنه، فيفكر أن يشتري أنبوبة الأوكسجين احتياطاً، إذ لا يمكن لأحد أكان مؤمناً أو كافراً أن يعيش في الدنيا إلا معتمداً على النظام الإلهي الذي لا خلل فيه. ولو

كان الإنسان عالماً بشتى أنواع الأخطار والمهالك التي قد يقابلها، لصارت حياته جحيماً لا يُطاق.

والهواء مثل مرآة تضيء ما حولنا، فالضوء لا يعطي نوراً إن لم يصطدم بالمادة. والضوء الذي يصطدم بقطعة صغيرة يتبعثر مثل الألعاب النارية وينتشر على شكل حرارة ونور. أما الفضاء خارج الغلاف الجوي فهو مظلم على الرغم من وصول الضوء إليه من الشمس، وذلك لعدم وجود الجزئيات والذرات.

فالقمر الذي يخلو من غلاف جوي مثلاً ليس فيه طبقة غازية تبعثر الضوء القادم من الشمس، لذلك نجد أن سطح القمر مضيء لكن ما فوقه بقليل مظلم على الرغم من شدة ضوء الشمس.

فهذه المظاهر الرائعة أدلة شديدة الوضوح على أن الله تعالى قد خلق الأرض لغاية عظيمة وبظروف يقدر الإنسان العيش فيها. وهذه الدقة والنظام في الخلق من نِعَم الله العظيمة على عباده، ودليل آخر على وجوده ﷻ وقدرته. فحركة كل مخلوق في الكون في إطار نظام إلهي مع دقة في الحساب وإتقان في التخطيط إنما هي دليلٌ قطعيٌّ على وجود قدرة مطلقة دقيقة في الخلق.



لأجل ذلك فإن ادعاء الملحدين بأن الحياة والكون وُجدا صدفةً ادعاءٌ يثير الضحك. وقد أوضح إسماعيل فني أرطُغرل «١٨٥٥-١٩٤٦» هذه الحقيقة بمثال إذ قال:

«عندما ترى حساباً وانتظاماً في مكان ما، فإن العقل يحكم قطعاً بوجود مدبر ومنظم في ذلك المكان...هبْ أن لديك بستاناً غرست فيه غرساً كثيراً بترتيب. وذهبت يوماً إليه، ورأيت أن بعضاً من الغرس انكسرت هنا وهناك. وعندما سألت عن السبب، أجابك البستاني أن عاصفة هبت فكسرت الغرس، عندها تصدِّقه بلا شك. ثم ذهبت في يوم آخر فرأيت مثلاً أن الخامسة من كل خمس غرسات قد كُسِرَت، فسألت البستاني عن ذلك، فأجابك بالجواب السابق، فهل تصدِّقه؟ لا شك أنك لن تصدِّقه بل تتهم أحداً بسوء النية. إذ لا يمكن أن ترى هذا الأمر صدفة، لأن الواقعة في هذه المرة تدل على عمل مخطط مدروس».[٥٣]

فلا يمكن لأي عاقل سليم الفكر إنكار الحسابات والموازين الدقيقة التي يقوم عليها الكون.

ولنذكر هنا بعضاً منها:

---

٥٣ أجوبة حول حقائق الإيمان، ص٢١- ٢٢، سبيل للنشر، إسطنبول ١٩٧٨.
«İman Hakikatleri Etrafında Suallere Cevaplar, sf, 22-21, Sebil Yayınevi, İstanbul, 1978»

الضغط الجوي

إن الغازات التي تشكل الغلاف الجوي تضغط بقوة ١ كيلو غرام تقريباً على كل ١ سم[٢]، يعني أن جسد الإنسان يكون تحت ثقل قدره نحو ١٥ طناً. وقد وازن الحق ﷻ هذا الأمر بتوازن عظيم أيضاً. فبقدر ضغط الهواء في الخارج يخرج من داخلنا نحو الخارج ضغط يعادله تماماً. والسبب في عدم الراحة ونزيف الأنف عند الذين يصعدون إلى الارتفاعات التي ينخفض فيها ضغط الهواء هو ذلك الفرق بين الضغطين. ولا يمكن لرواد الفضاء أن يتجولوا في الفضاء إلا بعد ارتداء ملابس خاصة فيها ضغط جوي.

توازن الحرارة والبرودة

إن ذرات بخار الماء وثاني أكسيد الكربون المنتشرة بصورة كافية في الهواء تحافظ على الحرارة فتحقق توازناً مدهشاً. وهذه الذرات تمتص قسماً كبيراً من الضوء القادم من الشمس نهاراً لتمنع ارتفاع درجة الحرارة في النهار. وعندما تغيب أشعة الشمس ليلاً يُحافَظ على الحرارة التي امتصتها تلك الذرات ولا تُترَك لتنتشر في الفضاء وذلك بنظام مشابه لنظام البيوت البلاستيكية التي تُستخدَم في

الزراعة. والقمر مثلًا يلتهب من الحرارة نهاراً ويتجمد من البرودة ليلاً لأنه محروم من سقف حافظ كهذا السقف.

الرياح

ينقسم الغلاف الجوي إلى طبقات مختلفة وفقاً لدرجة الحرارة، والضغط، ومقدار الرطوبة، وغيرها من الأمور. والطبقة الأولى في الغلاف الجوي طبقة «التروبوسفير» التي تحدث فيها الأمطار والثلوج والرياح. وهذه الطبقة التي تبتعد عن سطح الأرض بمقدار ١٦كم تنخفض فيها درجة الحرارة حتى تصل إلى ٥٦ درجة مئوية تحت الصفر، وفي هذه الطبقة من الهواء يتأسس نظام دوري متكامل.

وبسبب ميل محور الأرض فإن أشعة الشمس لا تتعامد على منطقة خط الاستواء فقط، وهكذا تتوزع الحرارة على المناطق الاستوائية. ويتعرض الهواء والأرض أكثر للحرارة في تلك المناطق، فتجتمع الحرارة هناك، وهذا يؤدي إلى توفير الطاقة اللازمة للرياح.

إن آلاف الأطنان من المياه التي تتبخر من البحار تتصاعد إلى الهواء. وتقوم الرياح بنقل هذه المياه إلى الأراضي التي تحتاجها. وينتج من ذلك النظام المتكامل



أن المطر لا يصيب مناطق دون مناطق بل تأخذ كل بقع الأرض نصيبها من الماء والرحمة.

وتنتقل الحرارة نتيجة دوران الغلاف الجوي وفق نظام بديع. وبينما ينزل الهواء البارد في المدارات الشمالية إلى المدارات السفلى، فإن الهواء الساخن الذي في الجنوب يرتفع إلى المدارات العليا في الشمال. ويتم هذا الأمر بسبب حركات نظم الضغط الجوية المنخفضة والمرتفعة بين الشمال والجنوب، وبمساعدة تيارات الرياح القوية في المستويات العالية.

إن إمداد الشمس لسطح الارض بالحرارة بدرجات مختلفة يجعل كتل الهواء تسخن بدرجات متفاوتة، فيصعد الهواء الساخن إلى الأعلى ويحل مكانه الهواء البارد، ويتكون بذلك كتل الهواء المتحرك، ففي الأماكن التي يوجد بها الهواء الساخن يكون الضغط مرتفعاً والتي يوجد بها الهواء البارد يكون الضغط منخفضاً. ثم تبدأ ذرات الهواء في التحرك على شكل رياح. وتنقل هذه الرياح الرطوبة والحرارة والطاقة التي في الغلاف الجوي، وكذلك حبوب الطلع التي تساعد على تكاثر النباتات.

وفي هذا يقول الحق ﷻ في كتابه الكريم:



﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[٥٤]

وهكذا فإن الرياح تحني رقبتها طوعاً لسطوة الحق ﷻ وقدرته وعظمته مثل كل مخلوق. فتكون الرياح إذا أراد الله تعالى وسيلةً لرحمته ﷻ، وإذا أراد الله تعالى تتحول إلى وسيلة للهلاك والدمار. والآية الكريمة التي وصفت هلاك قوم عاد بالريح مثال لهذه الحقيقة، يقول الحق ﷻ:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ. تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[٥٥]

فوائد أخرى للهواء

يحمل الهواء آلاف الأطنان من الماء على أكتافه الرقيقة، وكذلك يحمل مئات من الطائرات الجوية، وينشر الضوء والحرارة. ويحمل إلى آذاننا الصوت بمئات الأطوال الموجية المختلفة، وتعد الهواتف المحمولة أعظم الأمثلة اللافتة للنظر في زماننا الحالي.

---

٥٤ الحجر: ٢٢.

٥٥ القمر: ١٩-٢٠.

ويحمل الهواء إلى أنوفنا الروائح المختلفة من غير أن يخلط بعضها ببعض. ولولا وجود الغلاف الجوي لما استطعنا أن نسمع أصوات الأصدقاء الجالسين بجوارنا، ولا استطعنا أن نضيء شيئاً. ويؤدي الهواء وظيفة حياتية عندما نتنفسه في رئتنا وفي عروقنا. وهكذا فإن الهواء يذكِّر المؤمنين أهل التفكر بعظمة الحق ﷻ وقدرته وتجليات رحمته التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى.

تصفية ربانية

أما الطبقة التي تلي طبقة «التروبوسفير» والتي ترتفع عن سطح الأرض بـ ٥٠ كم فهي طبقة «الستراتوسفير». وترتفع الحرارة مرة ثانية في هذه الطبقة التي تمنع وصول الإشعاعات الضارة إلى الأرض. وتوجد في هذه الطبقة طبقة الأوزون، والأوزون جزيء يتكون من ثلاث ذرات من الأوكسجين تصفِّي أضرار أشعة الشمس.

فالإشعاعات فوق البنفسجية التي تأتي من الشمس تقلِّل سرعة نمو النباتات، وتسبب سرطان الجلد للإنسان، وتضر بالعين، وتزيد من خطر الإصابة ببعض الأمراض المعدية. فطبقة الستراتوسفير تمنع الأشعة البنفسجية



القادمة من الشمس وتعكسها، وتحول الأوكسجين إلى أوزون بتفاعل كيميائي عجيب.

والحق أن الأوزون غاز شديد الخطورة، حتى إن استنشاق ١/ ٢٠٠ غرام منه يكفي لقتل أي إنسان، إلا أن رحمة الله تعالى وحكمته جعلت هذه الطبقة السامة تمنع ضرراً كبيراً يهدد حياة الإنسان، وجعلته مصفاة ربانية لحماية توازن المناخ.

سقف محفوظ

تعد طبقة «الميزوسفير» التي تمتد حتى ٨٠ كم الطبقة الوسطى للغلاف الجوي، وهي كالدرع يتصدى للنيازك.

فالنيازك التي تجتاز المشتري و زحل والقمر تنجذب إلى الأرض بفعل الجاذبية الأرضية، وتدخل إلى الغلاف الجوي بسرعة خارقة. فتحترق في طبقة الميزوسفير وتظهر لنا ما نسميها الشُّهب. ولو لم تكن هذه الطبقة الحافظة تحيط بالأرض أو كانت أقل سُمْكاً لسقطت ملايين النيازك على سطح الأرض، واحترق وجه الأرض وامتلأ بالثقوب مثلما هو الحال في القمر. إلا أنه من آثار رحمة الله تعالى على عباده تتحول هذه النيازك إلى غبار قبل أن تنزل على



رؤوسنا، ثم تغدو كل ذرة من ذرات الغبار نواة لقطرة من قطرات المطر.

إذ لا بد من أن تكون هناك ذرات صغيرة من الأرض ومن الفضاء لكي تتكون السحب في السماء، ولا بد أن تصل هذه الذرات إلى الغلاف الجوي الأعلى، عندئذ تبدأ الذرات بالتكاثف بواسطة الرياح الرطبة لتتكون حبيبات السحاب. ثم تتحول حبيبات السحاب إلى قطرات مطر صغيرة بعملية فيزيائة رياضية، ثم تنزل تلك القطرات إلى الأرض.

وقبل أن يُكتَشَف أي من خواص الغلاف الجوي قال الله ﷻ مالك السموات والأرض في كتابه العزيز:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [56]

الموجات اللاسلكية

يطلق على الطبقة التي يمتد تأثيرها حتى ارتفاع ٥٠٠- ١٠٠٠ كم اسم «الأيونوسفير»، وفيها تكون الذرات والجزئيات متأينة أي محملة بشحنة كهربائية سواء بإعطاء الإلكترون أو أخذه. وقد ترتفع الحرارة في تلك الطبقة إلى

٥٦ الأنبياء: ٣٢.

٢٠٠٠ درجة مئوية لدى تأيين الذرات بسبب امتصاصها لإشعاعات الشمس ذات الطاقة المرتفعة. وكأن طبقة «الأيونوسفير» مرآة للغلاف الجوي مصنوعة من الإيونات. وتضرب على هذه المرآة الموجات الكهرومغناطيسية التي تأتي من المرسِلات اللاسلكية الموجودة على الأرض فتنعكس بعضها وتُرسَل إلى الأرض مرة أخرى. وهذه الموجات المنعكسة تصل إلى كل بقعة من بقاع الدنيا، فيمكن رصد وتعقب هذه الموجات المنتشرة في كل مكان بسهولة.

فنجد أن الحق ﷻ قد جعل الأرض مسكناً دافئاً مفعماً بالحياة مع أنها تسير في فضاء مظلم بارد. فلا عبث في هذه الدنيا المعتدل مناخها، وحتى النسمة التي تهب لا تخلو من حكمة والورقة لا تسقط من غصنها إلا بإذن ربها.

إن كل شيء من أصغر مخلوق إلى أكبره لوحةٌ مليئة بالعِبر تعرض عظمة الله وإبداعه، يقول الحق ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [٥٧]

---

٥٧ لقمان: ٢٠.



فطوبى لمَن يقرأ سطور كتاب الكون المملوءة بالحكم والمحمَّلة بالحقائق، ويفهم ما بها من أسرار ومواعظ، ويتفكر فيها.

السحب والمطر والثلوج

فلنتفكَّر في السحب! بحار عظيمة ضخمة في الهواء. ومن وظائفها منع الحرارة الشديدة عن الأرض، إذ تتبخر المياه كلما زادت الحرارة أكثر فتتكون السحب. وتعكس هذه السحب الإشعاعات القادمة من الشمس كأنها مرآة عاكسة، فتبقى حرارة الأرض متوازنة.

إن ربنا الرحمن يرسل الرياح مبشِّرات للمطر، ثم تحمل الرياح تلك السحب التي مثل الجبال لتسوقها إلى بلاد معينة لها بأمر من الله ﷻ. وينشر الحق ﷻ كومات السحب في السماء كما يشاء، ويخرج من بينها المطر فيُنبِت ثماراً مختلفاً ألوانها. ويذكِّر بذلك بأنه سيُحْيِي الموتى بالطريقة نفسها، ويريد من الناس أن يعتبروا بهذه اللوحة المعبرة العظيمة.[٥٨]

إن الله سبحانه وتعالى ﷻ يُنزِل رحمته على من يشاء من عباده، لا سيما أولئك الذين أصابهم القحط، عندئذ

---

٥٨ انظر: الأعراف، ٥٧؛ فاطر، ٩.



يفرحون بهذه النعمة، ويعود إليهم الأمل بعد اليأس؛ لأن الحق ﷻ يقول:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [٥٩]

ويربِّي ﷻ عباده المذنبين أحياناً بالقحط وأحياناً بالمطر والبَرَد، فيعذب من يشاء ويحفظ من يشاء. يقول الحق ﷻ في كتابه العزيز:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [٦٠]

فالله ﷻ إذا شاء، جعلَ السماء والأرض وما فيهما بناءً على أعمال الناس وأحوال قلوبهم.

وهو سبحانه يُرسل المطر على شكل قطرات فلا تتصل أي منها بالأخرى ولا تتحد معها أبداً. وكل قطرة من المطر

---

٥٩ الشورى: ٢٨.

٦٠ النور: ٤٣.

تذهب إلى طريق مرسوم لها فلا تحيد عنه، ولا تتأخر ولا تسبقها من تأتي بعدها. ولو اجتمع الإنس والجن على أن يصنعوا قطرة أو يعدوا قطرات المطر التي تسقط على قرية، لعجزوا عن ذلك؛ فلا يعرف عددها إلا الله ﷻ الذي خلقها.

وثمة عِبَر لا يمكن حسابها في البَرَد المتجمد الذي أصله ماء عذب، وفي تلك الثلوج التي تنزل كالقطن المنفوش.

فمَن الذي يجعل أصغر غصن في قمم الأشجار يستفيد من مياه الأمطار والثلوج التي تنزل من السماء إلى الأرض؟ وكيف ينتشر الماء على كل أجزاء أوراق الأشجار دون أن يظهر للعيون؟ وكيف تستفيد منه جميع ذرات الشجرة بواسطة الشعيرات؟وكيف يرتفع الماء إلى الأعلى رغم قوة الجاذبية؟[٦١]

ولو أن قطرات المطر تنزل وفقاً لقانون الجاذبية الأرضية، لكانت كل قطرة تضرب الأرض بسرعة الرصاصة، ولقضَت تلك القطرات على الأحياء كلها، لكنها تنزل بسرعة ثابتة من غير أن تؤذي أحداً أو تهدم بيتاً أو تتلف زرعاً.

٦١ انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ٦، ٦٧–٦٨.



إن الذرات الموجودة في السحب تأخذ شكلها على مقياس معين فتتحول إلى قطرات. ثم يتعادل تأثير قوة جاذبية الأرض مع قوة الرفع في الهواء حتى تهطل القطرات بسرعة ثابتة.

فبحسب أولئك الذين ينظرون ببصيرة واعتبار هذه الحقيقة وحدها ليدركوا روعة النظام الإلهي الذي نعيش فيه وجمال تناغمه، فيعرفوا عظمة ربنا الذي لا حدَّ لعلمه وقدرته وحكمته.

التفكر في الأرض

إن العباد الأتقياء يتفكرون ويتدبرون فيعرفون لغة الأزهار التي تَتَفتَّح، والطيور التي تغرد، والأشجار التي تثمر. فينعكس الجمال والرِّقة واللطافة على حياتهم المعنوية، فيغدون أصحاب قلوب رقيقة مثل الأزهار، وأصحاب كرم مثل الأشجار المثمرة، وهؤلاء هم الذين أثنى الله ﷻ عليهم في كتابه العزيز.

لقد جعل الله ﷻ الأرض على أفضل شكل وأعدَّها لعيش الإنسان عليها. وجعلها مستوية كي يشق الإنسان الطرق ويسير عليها، وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٦٢]

ويقول ﷻ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا. وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [٦٣]

ويقول أيضاً:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [٦٤]

فالله تعالى يذكر الأرض كثيراً في كتابه العزيز كي يلفت نظر الإنسان إلى الحكم الكثيرة التي فيها. فظاهر الأرض مكان للأحياء، وباطنها مكان للأموات، وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا. أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [٦٥]

---

٦٢ البقرة: ٢٢.

٦٣ النبأ: ٦– ٧.

٦٤ الملك: ١٥.

٦٥ المرسلات: ٢٥–٢٦.



انظر إلى الأرض وهي ميتة كيف تحيا عندما ينزل عليها الماء فتخضَر وينبت عليها من كل زرع بهيج، وتخرج من جوفها نباتات مختلف أُكلها وألوانها! وانظر كيف ثبَّت الله تعالى الأرض بالجبال الرواسي الشامخة! وكيف يحفظ الماء تحت تلك الجبال! وكيف يُفجِّر الينابيع والأنهار على سطح الأرض! وكيف يُخرج الماء العذب الفرات من بين الحجارة الصلبة! وكيف وَهَب الحياة لكل شيء بالماء! وكيف أنبت الأشجار والزروع المتنوعة كالقمح والعنب والبرسيم والزيتون والنخيل والرمان! هذه الثمار المتنوعة مختلفة اللون والطعم والرائحة والشكل والهيئة! في كل منها جمال آخر ولمعان مختلف! فبعضها أفضل من بعض في الأكل.. مع أن كلها يسقى بماء واحد، ويخرج من تراب واحد!.

النباتات

عندما تسقط بذرة على الأرض وتؤثر فيها رطوبة الأرض تبدأ في النمو. تنشق تلك البذرة فتخرج من القسم العلوي شجرة تمتد فوق الأرض، وتخرج من القسم السفلي جذور تمتد وتتعمق في باطنها. وهذا أمر مثير للدهشة لأن طبيعة هذه البذرة واحدة، والتأثيرات

الخارجية واحدة إلا أنه يخرج منها جزء يرتفع في الهواء ويمتد إلى السماء، وقسم يدخل في الأرض ويتعمق فيها. ونشأة شيئين متضادين من شيء ذي طبيعة واحدة أمرٌ مثيرٌ للحيرة والدهشة، لكننا نعرف وندرك أن هذا يكون بإرادة خالق عظيم له حكمة في كل شيء.

ثم تنمو من تلك البذرة شجرة وارفة الظلال كثيفة الأوراق كثيرة الأغصان، وتتفتَّح الأزهار ثم تتحول إلى ثمار يانعة. وتحتوي هذه الثمار في داخلها على مواد مفيدة لجسم الإنسان.

والثمرة نفسها فيها خصائص مختلفة، فبذور ثمرة العنب مثلاً يابسة جافة، أما هي فرطبة طرية. ولا ريب أنَّ نمو ثمار ذات خصائص مختلفة من بذرة واحدة تعرضت للتأثيرات نفسها لهوَ تدبيرُ صاحب قدرة مطلقة وحكمة عظيمة.

وقد جعل الله تعالى- إضافةً إلى ما ذكرنا- من تلك النباتات صيدلية طبيعية لشفاء كثير من أمراض بني البشر. فبعض تلك النباتات شفاء، وبعضها غذاء، وبعضها يعطي القوة للجسم، وبعضها يحيي الإنسان، وبعضها سامٌّ يقتله. ومن النباتات ما يُؤكلُ فينقلب إلى مادة أخرى، ومنها ما يُنعِش الإنسان، ومنها يهدئه ويُخدِّره.

وممَّا ينبغي أن نعتبر به أن النباتات تجهِّز الغذاء اللازم لها عن طريق ثاني أكسيد الكربون والماء، وتطلق الأوكسجين اللازم لتنفس المخلوقات كلها.

فليست هناك ورقة تنمو ولا غصن يابس إلا وفيه فوائد جمة للإنسان، ولكن ليس للإنسان قدرة على الوقوف على كنه هذه الفوائد كلها.

وما أعظم أن نعلم أنه ليس ثمة كيميائي في هذه الدنيا يستطيع أن يصنع مثل تلك الأعشاب التي نمرُّ عليها فلا نكاد ندرك وجودها؛ تلك الأعشاب التي تُخرِج من التراب أوراقاً مختلفة الألوان والروائح والطعوم والأشكال.

والحقُّ أن النظام والتوازن في نمو النباتات مظهر من مظاهر عظمة الخالق، فشجرة الدُّلب المعروفة بضخامتها مثلاً تنتج ملايين البذور كل عام، ويكون لكل بذرة ما يشبه المظلة من الوبر كي تتوزع في سائر الأنحاء. وتحمل الرياح هذه البذور إلى الأماكن البعيدة. فلو نبتت شجرة دلب جديدة من كل بذرة من بذور تلك الشجرة الأولى الأم لَغَطَّت أشجار الدلب وجه الأرض، واحتلت كل مكان فيها بعد وقت قصير. أي إن شجرة دلب واحدة يمكن أن تضيِّق الأرض على أهلها، وهذا المثال يمكن أن يشمل الأحياء الأخرى كلها.



وعلى سبيل المثال أراد الأستراليون قبل سنوات عدة أن يصنعوا سياجاً من نبات من فصيلة الصبَّاريات. لكن هذا النبات بدأ ينمو بسرعة كبيرة لعدم وجود حشرة في أستراليا تتغذى عليه. وفي نهاية هذا التطور الذي أصاب الأستراليين بالاضطراب والقلق غطى نبات الصبار هذا مساحة تعادل مساحة إنجلترا! وأجبرَ أهالي المدن والقرى التي توسَّع فيها على ترك أماكنهم، ومحت مزارعهم وقضت عليها.

وقد قلب علماء الحشرات في أستراليا الدنيا رأساً على عقب ليجدوا وسيلة للقضاء على هذا الصبار حتى وجدوا حشرة تعيش على ذلك النوع من الصبار ولا تأكل شيئاً غيره. فأحضروا تلك الحشرة فوراً إلى أستراليا وبدأت تلك الحشرة في النمو بصورة سريعة ولم يكن لها عدو هنا، ولم يمضِ وقت طويل حتى استطاعت تلك الحشرة أن تتغلب علَى ذلك الصبار. وانحصر الصبار اليوم في مساحة محددة. وتخلص الأستراليون من ذلك البلاء وتلك المصيبة وأبقوا على عدد محدد من تلك الحشرة يكفي كي يظل الصبار تحت السيطرة.[٦٦]

---

٦٦ علم– أخلاق– إيمان، إعداد: مصطفى رحمي بلابان، ص ١٩٠ .
«İlim-Ahlâk-Îman, Derleyen: M. Rahmi Balaban, s190»



يُظهر هذا المثال أن الكون يسير وفق توازن بيئي لا يستطيع العقل أن يدرك سِرَّه بسهولة. ونفهم من ذلك أنه من المحال لأي عاقل أن ينكر وجود قدرة تمنع نمو بعض النباتات وتكاثر الحيوانات على نحو مفرط يهدد الحياة على الأرض.

والعجيب أن هنالك ملايين الأنواع المختلفة من الزروع والفواكه تنمو في تربة واحدة، ذلك أن ربنا الرزَّاق قد أعدَّ موائد متنوعة لجميع مخلوقاته على اختلاف أنواعها.

إن الإنسان مثلاً لا يأكل كثيراً مما يأكله الضأن، ولا يأكل الضأن كثيراً مما يأكله الإنسان، وذلك يعني أن الرزق قد قُسِمَ بين المخلوقات بِدقَّة. والآية التالية التي تعرض قدرة الله في توفير الرزق لمخلوقاته وتقسيمه تدعونا للتفكر والتدبر، إذ يقول الحق ﷻ:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٦٧]

وما أعظم رحمة الله ﷻ حين تغدو بعض المخلوقات وسيلة لرزق بعضها، وحين نرى طائراً سليماً يُحضِر الطعام لآخر مريض.

---

٦٧ العنكبوت: ٦٠.

وما أعظم العِبَر في أن نرى الموائد إلهية التي تُشبِعُ كل المخلوقات منذ خلق الدنيا إلى يومنا هذا. ولو أمعنا النظر في هذا الأمر، لوجدنا أن ثلاثة أرباع الأرض مغطاة بالماء، وقسم كبير من اليابسة مناطق قاحلة أو صحراء غير صالحة لنمو النبات، والقسم القليل المتبقي تربة صالحة للزراعة. فما أعظم قدرة الله ﷻ الذي جعل هذه التربة مصدرًا للغذاء يكفي لإشباع جميع الأحياء.

البحار الواسعة

من المعلوم أن ثلاثة أرباع الأرض مغطاة بالماء. وفي ظل هذا الوضع لا يؤثر بَرْدُ القطبَين المتجمدين في الأرض كلها، ولا حرارة المنطقة الاستوائية. فاليابسة التي تسخن بأشعة الشمس نهاراً توزِّع الحرارة المتجمعة إلى الأطراف مثل جهاز بث الأشعة. أما البحار فتأخذ ملايين السعَّرات الحرارية من الشمس، إلا أنها لا تسخن إلا بدرجات قليلة، ولا تبرد بسهولة بعد هذا التسخين. أي إن زيادة حجم البحار على اليابسة تنظم الحرارة في النظام المناخي فيمنع السخونة الزائدة والبرودة البالغة. وتلبي في الوقت نفسه حاجة اليابسة للماء عن طريق التبخر. فلو كانت البحار على الأرض أقل من حجمها الحالي لقلت نسبة التَّبخُر

وقَلَّ الماء وتحولت الأرض إلى صحراء جرداء بسبب الجفاف.

والواقع أن صفات الأحياء والكنوز التي في أعماق البحار لا تقل عن تلك التي توجد على سطح الأرض. فمن البحر يُستخرَج اللؤلؤ والمرجان وأحجار الزينة الأخرى، ومنه تُستخرَج الأغذية الطازجة التي لها مكانة مهمة في غذاء الإنسان.

الماء

إن حياة كل الأحياء على ظهر الأرض ترتبط بالماء، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومُنِعَ منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها. فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها، بذل جميع الدنيا فيها، فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال.[٦٨]

٦٨ الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤، ٤٤٢.



فإذا تفكر الإنسان كما ينبغي في تلك الحقائق التي لا تُحصَى، فسوف يدرك مدى حاجة الأحياء على ظهر الأرض إلى عون ذي العلم والقدرة المطلقة كي تستطيع العيش في هذه الحياة. ويفهم أنه يعيش في ظروف مناسبة لن يستطيع تحقيقها وحده، وكأنه في عالم من العجائب الإلهية. فلا يمكن لأي عقل ومنطق أدركَ هذه الحقيقة أن يكون جاحداً عاصياً لله تعالى خالق هذا الكون ومنظِّمه.

الحِكَم في الحيوانات

يجب أن نمعن النظر إلى الطيور التي تطير في السماء، وإلى الحيوانات البرِّية والأليفة، وإلى الحشرات الدقيقة التي ترى بصعوبة؛ ففيها عجائب عظيمة لا يملك الإنسان إلا أن يتعجب ويندهش لعظمة الله سبحانه وتعالى الذي خلقها وقدرته وحكمته.

فكيف رَكَّب الحق ﷻ الأعضاء المدهشة في تلك الحيوانات الصغيرة التي تعسر على العين رؤيتها! وكيف جعلها تؤدي وظائفها من غير تقصير! حتى إن اكتشاف خصائصها بصورة كاملة يفوق إدراك الإنسان.

وإذا نظر الإنسان بدقة إلى الحيوانات حوله وإلى أشكالها وصورها، ثم نظر بنظرة اعتبار إلى الفوائد التي يحصل عليها

منها مثل الجلد والصوف واللبن واللحم، فسيرى رحمة الله ولطفه الذي لا حدَّ له. فالله ﷻ قد أعطى لها جلداً خاصاً لحمايتها من البرودة، وأنعم عليها بأظفار غليظة ليحافظ على أقدامها، وقضى حاجاتها كلها بأجمل صورة.

فالفراشات التي لا يبلغ عمرها أسبوعاً أو أسبوعَين مثلاً تعرض لوحات رائعة بنقوشها البديعة وتبيِّن بلسان حالها معاني كثيرة مفعمة بالأسرار. وهذا مثال بسيط للبدائع الإلهية اللامحدودة التي تُعرَض لتنظر العيون، وتدرك العقول، وتشعر القلوب.

ويريد الله تعالى في القرآن الكريم أن ننظر إلى الإبل ونفكر في كيفية خلقها، فيقول ﷻ:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [٦٩]

وهذا يعني أننا عندما نمعن التفكير في كيفية خلق الحيوانات والمخلوقات الأخرى، سنرى كثيراً من تجليات العظمة الإلهية.

---

٦٩ الغاشية: ١٧-٢١.



فالله ﷻ أعطى الأحياء خصائص عجيبة وجعلها تتغذى بأغذية متشابهة وتنتج منتجات مختلفة، وبعضها يُكمِّل بعضًا لتكون الحياة ممكنة من كل جوانبها.

فعندما تأكل البقرة أو الضأن مثلاً ورقةَ توت خضراء تنتج منها الحليب، وعندما تأكلها دودة القز الصغيرة تنتج منها الحرير، وإذا ما أكلها الغزال يخرج منه المسك. وإنتاج النحل العسل من رحيق الأزهار أمر يفوق طاقة الإنسان الذي هو أكمل مخلوق في الكون. وتلك الأزهار التي نحسبها نباتات بسيطة تُخرِج من التراب ألواناً متنوعة وروائح مختلفة يعجز عن الإتيان بمثلها أي كيميائي في العالَم مهما بلغ شأنه وعلا قدره.

والحيوان الذي منحه الله تعالى نظاماً يستطيع به أن ينتج اللحم واللبن من العشب لن يستطيع الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات أن ينتج مثله. فلو أحضر الإنسان آلاف الأطنان من العشب والحشائش ووضعها في أفضل المعامل الكيميائية واستخدم أعلى التقنيات الحديثة لن يستطيع أن ينتج غراماً واحداً من اللحم أو اللبن.

يقول ربنا ﷻ:



﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [70]

نحل العسل

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه الكريم:

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [71]

ويقول رسول الله ﷺ في حديثه الشريف:

«...والذي نفس محمد بيده، إن مَثَل المؤمن لكمثل النحلة، أكلت طيباً، ووضعت طيباً، ووقعت فلم تكسر ولم تفسد». [72]

يذكر النبي ﷺ أوصاف المؤمن هنا ويشير في الوقت نفسه إلى الحكم الموجودة في النحل.

---

٧٠ النحل: ٦٦.

٧١ النحل: ٦٩.

٧٢ أحمد، مسند، ٢، ١٩٩ / ٦٨٧٢؛ الحاكم، المستدرك، ١، ١٤٧؛ البيهقي، شعب الإيمان، ٤، ٥٨.

يقول المفسر حسين الكاشفي:

«إن من يفكر يعرف أن الله تعالى العليم القدير قد خلق النحل- هذا الكائن الضعيف- وجعل فيه حِكماً كثيرة. فالنحل متواضع لا يحيد عن الطريق المستقيم، يأكل الفواكه الحلوة والمرة لكنه يعيدها عسلاً لذيذاً حلواً.

وهو أيضاً صاحب ورع وتقوى لا يأكل إلا الطاهر الصافي. وهو طائع لا يخرج أبداً عن أمر الله تعالى. وهو محب لسكنه ووطنه يذهب إلى الأماكن التي تبعد مئات الفراسخ ثم يعود مرة أخرى إلى وطنه. وهو كذلك نظيفٌ طاهرٌ لا يقف على القاذورات ولا يأكلها. وهو صاحب فن ومهارة لو اجتمع فنانو الدنيا ومهندسوها كلهم لما استطاعوا أن يعملوا الذي يعمله. أما العسل الذي ينتجه ففيه الشفاء للأمراض الظاهرة، والتفكر في أحواله فيه شفاء للجهالة التي هي من الأمراض الباطنة».

معجزة الفطرة

لقد عبر إسماعيل فني أرطغرل عن تسيير الحيوانات لحياتها وفق نظام إلهي يُسمَّى «**الفطرة**» فقال:

«إن الحيوانات تعرف بالفطرة من غير أي تعليم الأغذيةَ المفيدة لها، والأشياء اللازمة للحفاظ على



حياتها واستمرار تناسلها. فالطيور تبني الأعشاش الجميلة والطيور المهاجرة تتجمع في يوم معلوم استعداداً للسفر. وبعض الحشرات قبل أن تموت تقوم بتخدير وتعطيل بعض غدد الحشرات الأخرى دون أن تقتلها، وتضعها بجانبها مشلولة دون أن تستطيع الحراك ليتغذى عليها صغارها عندما تخرج من البيض. لكن العجيب أن هذه الحشرات تأكل أغذية أخرى بعدما تكبر. أما النحل فله القدرة والاستعداد على تحديد نوع المولود بجعله ذكراً أو أنثى عن طريق تغيير أغذية الشرنقة. والخلية عندما تُحرَم من ملكتها لسبب ما، فإن النحل يستطيع أن يحوِّل إحدى الشرنقات إلى ملكة لتحكم الخلية...».[٧٣]

وما أعظم العبرة حين نعلم أن حشرة الدبور تسيطر على الجرادة وتفتح لها حفرة في الأرض وتدفعها فيها، وتلسعها فلا تقتلها لكنها تجعلها في حال إغماء حتى تكون الجرادة مثل اللحم المحفوظ. وعندما تضع بيضها، ويخرج الصغار تحضر لهم اللحم الطازج ليتغذوا عليه. وبعد ذلك تذهب تلك الأم وتطير بعيداً وتموت قبل أن

٧٣ أجوبة حول حقائق الإيمان، ص٢١– ٢٢، سبيل للنشر، إسطنبول ١٩٧٨.
«İman Hakikatleri Etrafında Suallere Cevaplar, sf, 58-59, Sebil Yayınevi, İstanbul, 1978»

ترى صغارها. إن هذه الأفعال الغريبة والأسرار لا يمكن إيضاحها أو نسبها إلى المحاكاة والتعلم من التجارب، بل هي تعليم ربَّاني.[٧٤]

وسمك السلمون بعد أن يظل في البحر لمدة سنوات يعود إلى وطنه الأصلي ويصل إلى مكانه من النهر حيث وُلِدَ تماماً.

فمن أعطاه الإحساس الذي يقوده إلى مكانه القديم بالضبط؟! ولو أخذنا هذه السمكة ووضعناها في جدول ماء آخر يصب في النهر نفسه، فإنها ستعرف أنها تسير في الطريق الخطأ وترجع مرة أخرى وتعود إلى الجدول الأصلي الحقيقي فتسير عكس اتجاه مجرى النهر، وتأخذ طريقها مباشرة نحو الجدول الذي ولدت فيه.

أما حَلُّ سرِّ أسماك الثعبان فهو أكثر صعوبة؛ فهذه المخلوقات تصيب الإنسان بالحيرة والدهشة، ذلك أنه عندما يحين ميعاد وضع البيض تأتي أسماك الثعبان من أنهار الدنيا وبحيراتها كلها لتضع بيضها في الأعماق التي بجوار جزر بَرْمُودا في المحيط الأطلسي وتموت.

---

٧٤ علم- أخلاق- إيمان، إعداد: مصطفى رحمي بلابان، ص ١٨٩.
«İlim-Ahlâk-Îman, Derleyen: M. Rahmi Balaban, s189»



فالأسماك التي تعيش في أوربا تعبر آلاف الأميال في المحيط وتأتي إلى المكان نفسه. وصغار السمك التي تخرج من البيض والتي يُظَن أنها لا تعرف شيئاً آخر سوى أنها تعيش داخل ماء لا حد له ولا قرار تسلك طريقها وتعود من حيث جاء آباؤها وأمهاتها، وفي النهاية تصل إلى الساحل نفسه. ولا تكتفي بهذا بل تذهب إلى النهر أو البحيرة الصغيرة التي كان آباؤها وأمهاتها يعيشون فيها.

وحتى الآن لم نصادف أي سمكة أمريكية من نوع سمك الثعبان تعيش في أوربا، أو أي سمكة أوربية من هذا النوع تعيش في أمريكا. وسبحان الله الذي زاد من عمر سمك الثعبان الأوربي سنةً وذلك لطول المسافة التي تقطعها.

ولنا أن نسأل في عجب مَنْ علَّمَ هذه الأسماك كل هذه الأمور ورسم لها ذلك القدر المعلوم؟!.[٧٥]

والحق أن الأحوال الخارقة للعادة التي تبدو في الحيوانات تُظهر بصورة واضحة أنها لم توجَد مصادفة، ولا تتحرك خبط عشواء. بل على العكس تماماً فهذه

---

٧٥ علم- أخلاق- إيمان، إعداد: مصطفى رحمي بلابان، ص١٨٨- ١٨٩.
«İlim-Ahlâk-Îman, Derleyen: M. Rahmi Balaban, s188-189»

الحيوانات كلها تتحرك وفق منظومة محددة رسمتها قدرة الخالق الذي خلقها.

وتوجيه تلك الحيوانات بإرادة ربانية من أوضح الأدلة على وجود الله وقدرته وعظمته. وعندما يعرض ربنا ﷿ هذه الأدلة على الناس، يميز بها أولئك الذين يرون الحقيقة ويخضعون للحق ﷿، وأولئك الذين يرون مظاهر الإعجاز فتعمى أبصارهم عن رؤية الحق والحقيقة. يقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [٧٦]

الخلق أزواجاً

خلق الله سبحانه وتعالى المخلوقات كلها أزواجاً، وخصَّ نفسه فقط بالوحدانية، فقال ﷿ في كتابه الكريم:

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [٧٧]

---

٧٦ البقرة: ٢٦.

٧٧ الذاريات: ٤٩.

وقال أيضاً:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [٧٨]

وحقيقة زوجية المخلوقات التي أثبتها العلم الحديث منذ زمن قريب قد أخبرنا بها القرآن الكريم في آياته الكريمة منذ أربعة عشر قرنًا وجعلها معجزة علمية للبشر .

إن هذا الكون الذي خُلِقَ بدقة تفوق إدراك الإنسان وكلُّ ما فيه من البشر والحيوانات والنباتات والذرات وعناصرها الخفية مثل الإلكترون والبروتون تخضع- كلٌّ وفقاً لحاله- لقانون الزوجية، وهذا الأمر يفتح لنا آفاقاً واسعة للتفكر.

التفكر في نعم الله

إن أكبر نعمة أنعم الله تعالى بها علينا أنه صوَّرنا في صورة بشر، وجاء بنا إلى الدنيا في بيئة مسلمة. أما النعمة التي هي أكبر من ذلك فهي أنه جعلنا من أمة رسولنا الكريم ﷺ وخاطبنا في القرآن الكريم.

---

٧٨ لقمان: ١٠.

فرسول الله عليه الصلاة والسلام كان كالقرآن الحي نقتدي به في أفعالنا وحركاتنا وسكناتنا، وهو الذي يعلِّمنا الكتاب والحكمة ويزكينا، ولو أدركنا قدْر هذه النعمة فقط حقَّ قدرها، لما كان علينا أن نرفع رؤوسنا أبداً من سجدة الشكر لله تعالى.

ونِعَم الله تعالى ليست محدودة بهذا فقط، بل نعمه مثل قطرات المطر لا تعد ولا تحصى. يقول رسول اللَّه ﷺ:

«**قال الله ﷻ: أنفق أنفق عليك، وقال: يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغض ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع**».[٧٩]

فحقُّ النعمة أن تتفكر فيها، وتستدل بها على وجود الخالق، وتفكر في قدرته ﷻ وعطائه، وتشكره عليها.

يقول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:

«الكلام بذكر الله ﷻ حسن والفكرة في نعم الله أفضل العبادة».[٨٠]

٧٩ البخاري، التوحيد، ٢٢/ ٤٦٨٤.

٨٠ أبو نعيم، حلية الأولياء، ٥،٣١٤.

أما كفران النعمة فهو إهمال الشكر عليها، واستهلاكها في شهوات الجسد والنفس الدنيئة وإتلافها. وهذا ما يُبعِد المرء عن الحق ﷻ واهب النعم.

والشكر ثلاثة أقسام:

١- شكر القلب: التفكير في النعمة.

٢- شكر اللسان: الحمد والثناء على النعمة.

٣- شكر الأعضاء: مقابلة النعمة بما تستحق.

وقد قيل: «شكر النعمة يكون من جنسها».

أي إن الحق ﷻ لو أنعم علينا بنعمة معينة، فيجب أن نعطي منها للمحرومين.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿...**وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**...﴾[81]

التفكر بكل الوسائل

كان سفيان بن عيينة أحد كبار علماء الإسلام يردد كثيراً قول الشاعر:

إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة.

ولهذا كان العرب يقولون:

«ما أكثر العِبر وما أقلَّ الاعتبار».

---

٨١ القصص: ٧٧.



كل ذرة تدلُّ على الله عَزَّ وَجَلَّ

لو استطاع الإنسان أن يقرأ كتاب الكون متأملاً متفكراً، لأخبرته كل ذرة يراها بعظمة الحق عَزَّ وَجَلَّ، وقرَّبته من معرفة الله تعالى.

يقول الحق عَزَّ وَجَلَّ في كتابه الكريم:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [٨٢]

من الحِكَم وراء القَسَم في القرآن الكريم لفتُ النظر إلى العبرة والفائدة في المخلوقات التي يُقسِم الله تعالى بها. فالله تعالى يريد من العبد أن يعتبر بالأمور التي تدل على عظمته سبحانه.

لذلك فإن المخلوقات كلها التي نراها والتي لا نراها إنما هي آيات قدرة الله وربوبيته، وإذا ما فكر الإنسان فيها، فسيعتبر ويجد حكمًا لا تحصى ولا تعد.

وما أعظم الأسرار والحكم والعبر التي يصل إليها المرء إذا تفكر وتدبر منطلقاً من روح القرآن الكريم. يقول الحق عَزَّ وَجَلَّ:

---

٨٢ الحاقة: ٣٨-٤٠.

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٨٣]

إن تركيز القلوب والعقول على هذه الأمثلة المتعلقة بالتفكر في القرآن الكريم سيحمل العبد إلى درجة «**التقوى**». فكما أن الزهور تحتاج إلى الهواء والماء والتربة والضوء، فكذلك رفع التفكر إلى درجات أعلى يكون مرتبطاً بالتقوى.

يريد الحق ﷻ من عباده أن يكونوا متفكرين متدبرين دقيقين في كل الأمور، لذلك على المسلم أن يلجأ إلى التفكر بكل وسيلة ويحتسبه عند الله عبادة. وهذه المقولة لرابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري الذي كان من علماء أهل السنة تقدِّم مثالاً رائعاً لتلك الحال:

«ما رأيت الثلج إلا تذكرت تطاير الصحف ولا رأيت الجراد إلا ذكرت الحشر ولا سمعت مؤذنا إلا ذكرت منادي يوم القيامة». [٨٤]

---

٨٣ الجاثية: ٣-٥.

٨٤ السلمي، طبقات الصوفية، بيروت ١٤١٩، ص ٤٠٠.

ويُروَى أن الخليفة هارون الرشيد دخل الحمام ذات يوم، فصبَّ عليه خادم الحمام الماء المغلي من غير قصد، فخرج هارون الرشيد من الحمام مسرعاً من شدة الألم، ووزَّع آلاف الصدقات، ولما سُئل عن ذلك قال:

«لم أستطع أن أتحمل ماء الحمام، فكيف سيكون حالي لو كنت من السائرين إلى جهنم يوم القيامة».

كان النبي ﷺ يعتبر بكل شيء يراه فيتوجه إلى ربه بالحمد والشكر. فعلينا أن نحاول أن نرى العظمة الإلهية في كل شيء نبصره حتى نغذِّي أفكارنا ومشاعرنا بالغذاء المعنوي. فالمسلم إذا نظر إلى القمر أو الشمس أو الغلاف الجوي، أو إلى نفسه، أو إلى أولاده أو أجداده، أو أينما نظر، عليه أن يقرأ بعيون قلبه الرسائلَ الإلهية فيما ينظر إليه. وعليه أن يتفكر ويسأل نفسه: من أين جاء وكيف جاء، وكيف يستطيع أن يستمر في الحياة، ومن أعطاه شكله وحجمه، ومن حدَّد له عمره، وإلى أين يذهب بعد الموت؛ ويعلم أن للحياة والكون حكمة، وأن لا شيء خلق عبثًا. وعليه ألا يترك نفسه تسير على هواها، ويدرك دائماً عظمة الخالق وقدرته.



لماذا خلق الله تعالى هذا الكون؟

يقول الحق ﷻ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٨٥]

على الإنسان الذي يتفكر في هذا الكون أن يعي مراد ربه ﷻ ويدرك أنه قد خلق كل شيء لغاية، وسخره لخدمة عباده، ثم يفكر في مسؤولياته تجاه الحق ﷻ ويسعى لأداء واجبات العبودية؛ فالجحود بنِعَم الله وكرمه وإحسانه غفلةٌ لا تليق بشرف الإنسان وعزته.

و عليه ألا ينسى أنه سيحاسب على هذه النعم كلها التي أعطيت له، إذ يقول الحق ﷻ:

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [٨٦]

فنحن مدينون لله ﷻ بالعبودية والشكر على النعم التي ندركها والتي نغفل عنها؛ وطوبى لأصحاب القلوب العارفة الذين يدركون هذه الواجبات ويسعون لأدائها كما ينبغي.

---

٨٥ الدخان: ٣٨-٣٩.

٨٦ التكاثر: ٨.



التفكر في الإنسان

فما لنا ألا نتفكر برهة في أن الأرض التي نمشي فيها قد امتلأت بأبدان مليارات البشر الذين ماتوا فتحولت تلك الأبدان إلى تراب كأنها ظلال متشابكة متداخلة... وغداً سنُدفَن مع أعمالنا في ذلك التراب وسنتلاشى داخل هذه الظلال الكثيفة، وبعد ذلك ستبدأ الرحلة إلى حياة أبدية وخلود لا ينتهي. فلنقف إذن لحظةً ونفكر أي عقل يستبدل اللحظة الفانية بالحياة الأبدية؟.

التفكر في الإنسان

الخوارق للعادة في الخلق

يقول الحق ﷻ:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[87]

لقد خلق ربنا ﷻ الإنسان في أحسن تقويم، فلا يمكن إدراك كافة الأسرار والحكم البليغة في خلقه على كثرة الاكتشافات العلمية وتطور التقنيات الحديثة.

يقول الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[88]

يذكِّر الحق ﷻ الإنسانَ في هذه الآيات بماضيه ويدعوه إلى التفكر في خلقه. ذلك أن الإنسان الذي جعله الله تعالى

---

٨٧ الذاريات: ٢٠-٢١.

٨٨ الانفطار: ٦-٨.



أكرم مخلوقاته قد خُلق من ماء مهين إذا رآه أحد كرهه.[89] فيا حسرتا على الإنسان حين يتفاخر بقوته الفانية فيعصي ربه العليم الحكيم القادر الذي جعل القطرة المهينة خلقاً عظيماً!

والحق أن مراحل خلق الإنسان التي يكتشفها الطب حديثاً قد صوَّرها القرآن في آياته الكريمة التي نزلت قبل أربعة عشر قرناً[90] حين قال الحق ﷻ:

---

٨٩ انظر: عبس، ١٧- ٢٢؛ الروم، ٢٠؛ الإنسان، ٢١ ، القيامة ٣٦ – ٣٨؛ المرسلات، ٢٠ – ٢٢؛ يس ، ٧٧؛ الإنسان، ٢.

٩٠ إن القرآن الكريم الذي نزل من ١٤٠٠ سنة تؤيده الاكتشافات العلمية كل يوم. فهذا الكتاب الذي نزل على نبي أُميٍّ ﷺ ليبلِّغه للناس مع أنه يتناول كثيرًا من القوانين الإلهية الجارية في الكون وآلاف الحوادث التي تعكس تلك القوانين، لم يكذبه أي اكتشاف، وذلك يعد دليلاً من الأدلة القطعية على أنه ليس من كلام البشر بل وحي من الله تعالى على رسوله ﷺ، وهذا يعني أن القرآن كان دائماً يسبق العلم البشري وتأتي الاكتشافات كلها لتؤيده. وبعض المفكرين الغربيين الذين لم يقفوا موقفاً سلبياً من الإسلام عندما رأوا الآيات القرآنية تتطرق إلى الاكتشافات الجديدة- كما ذكرنا في الأعلى- على الرغم من نزولها قبل أربعة عشر قرناً، أخذتهم الحيرة والدهشة، فسلكوا طريق الهداية. ومن بين هؤلاء العالم الفرنسي موريس بوكاي المتخصص في علم الأجنة الذي تشرف باعتناق الإسلام بسبب التصوير القرآني البديع، وألَّفَ كتاباً اسمه: (التوراة والأنجيل والقرآن والعلم)، فنوصي قراءنا الأعزاء بقراءة هذا الكتاب.



﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [٩١]

وأعضاء الإنسان- مثل كيفية خلقه- تدعوه بلسان الحال إلى التفكر، فكلُّ أعضائنا من عيوننا وآذاننا وأيدينا وأقدامنا وأدمغتنا وقلوبنا إنما هي مجالات للتفكر وكأنها تقول لنا:

انظر بنظرة اعتبار وتدبَّر كيف أن الحق ﷻ نظَّمَ الأعضاء التي تتشكل من اللحم والأعصاب والأوردة، وكيف جعلها تعمل في نظام متوازن. جعل الرأس مستديرة وفتح فيها منافذ مثل الأذن والعين والأنف والفم... وخلق الأيدي والأرجل طويلة، وجعل في نهاياتها أصابع وفي الأصابع مفاصل.... وخلق الأعضاء الداخلية مثل القلب والمعدة والرئة والأمعاء والطحال والرحم على أفضل هيئة، فلا عضو بلا فائدة ولا عضو يعمل منفرداً عن الأعضاء

٩١ المؤمنون: ١٢ –٦١.



الأخرى، بل لكل واحد منها وظائف مهمة وخُلِقَت على أفضل صورة كي تؤدي تلك الوظائف.

وكل واحد من هذه الأعضاء مقسَّمٌ إلى أقسام؛ فللعين مثلاً طبقات، ولكل طبقة شكل ووظيفة، ولو تعطلت طبقة منها أو فقدت إحدى وظائفها، لَكَفَّت العين عن الرؤية.

العظام

إن بنية العظام تدعو للإعجاب والدهشة، فكيف خلق الله ﷻ نطفة ضعيفة مهينة هذه العظام القوية الصلبة! ثم جعلها هيكلاً عظمياً قوياً متوازناً يقيم الجسم. ثم أعطى لها أشكالاً متغايرة وقدَّرَ لها مقادير مختلفة، فبعضها صغير وبعضها كبير، وبعضها طويل وبعضها مستدير، وبعضها أجوف وبعضها ممتلئ، وبعضها عريض وبعضها رقيق.

والإنسان ليس مركباً من عظمة وحيدة، فالعظام يرتبط بعضها ببعض بأربطة ومفاصل متحركة. وكل واحدة منها قد أعطيت شكلاً يلائم حركتها. وآلية تزييت هذه المفاصل هي آلية بديعة وخارقة للعادة، لأنه لا يمكن توضيحها بصورة تامة بأنواع التزييت الثلاثة المستعملة في التكنولوجيا إلى اليوم.

والآن يجب أن نفكر لحظة فيما لو تعطَّل أحد المفاصل التي في جسمنا، فكم من مشاكل ومصاعب سنواجهها.

ولو خلق الله تعالى عظمة واحدة زائدة في جسمنا، لكانت سبباً للألم وعدم الراحة. ولو كانت العظام ناقصة عظمة واحدة، لكان علينا أن نبذل جهداً لنعوِّض هذا النقص، ولما استطعنا أن نعوِّضه.

فلنفترضْ أنَّ إبهامنا تعطل، فكم سنتعطل في أعمالنا؟! أليست هذه الفرضية مدعاةً للتفكر؟

وبعض الأسنان مستويةً ملائمة للطحن والهرس، وبعضها حادة ملائمة للقطع والتمزيق.

وقد خلق الله ﷻ العضلات كي تحرِّك العظام، وجعل أشكالها وأحجامها تتغير بتغير مكانها ووظيفتها. وتوجد عضلات كثيرة في العين، ولو مرضت واحدة منها لأضرَّت بصحة العين.

فهذه كلها عجائب نستطيع أن نراها. وهناك أمور لا يمكن إدراكها بالحواس الخمس من خُلُق وطبيعة وشخصية ووجدان، فماهيتها أعظم وأجلُّ.

إن العجائب في جسم الإنسان هي صنعة الله تعالى البديعة من قطرة الماء. وعندما ينظر الإنسان إلى لوحة جميلة، يشعر بالحيرة أمام مهارة الرسَّام وذكائه ورِقَّته،



ويعظم هذا الرسَّام في عينه، مع أن الشيء الذي صنعه لم يكن من عدم، والأشياء التي استعملها لإتمام عمله كالورق والفرشاة والألوان كانت موجودة ولم يخلقها، واللوحة التي أبدعها ما هي إلا انعكاس الانطباعات والتأثيرات التي أخذها من العالَم الذي خلقه الله تعالى.

وإذا كنا نحار ونُعجَب حين نتمعن في عمل رسام ما، ألا ينبغي لنا أن نفكر بجوارحنا كلها ونتعجب أيما عجب من حادثة خلق الإنسان الذي هو بديعة فنية وإيجاد لا نظير له، والذي خلقه الله تعالى الصانع المطلق والمبدع العظيم من نطفة!.

الأعضاء

إن بنية الأذن، وفوائد الأنف، ونطق اللسان وإخراجه كل حرف من مخرج مختلف، وتزيين الفم بالأسنان، وتصميم الأسنان المنتظم مثل حبات اللؤلؤ المنضودة، واختلاف أصوات الناس، وتمييز العميان الآخرين بأصواتهم، والشعر واللحية والحاجب والرموش، والمعدة والكبد والكلية والأوردة، كلها أمور تدعو المرء إلى التفكر والتدبر، فكل عضو من هذه الأعضاء قد خُلِقَ بعلم وحكمة، ويؤدي وظائفه في توازن وتناغم مع الأعضاء الأخرى.

فكُلْيتنا قطعة لحم صغيرة، لكنها تفصل الأشياء السامة عن الأشياء غير السامة. فتطرد السام خارج الجسم، أما غير السام فتعيده مرة أخرى. فهل لهذه الكلية عقل؟ أو فيها حاسوب؟ أو مختبر للتحليل؟ ونحن نعلم ما يعانيه المرء إذا مرضت كليته، ونعلم أن الآلات الضخمة تعجز عما تؤديه قطعة اللحمة هذه التي لا يبلغ وزنها خمسين غرامًا.

ولينظر كلٌّ منا إلى يده! خُلقت طويلة لكي نستطيع أن نمدها إلى الشيء الذي نريده. وقُسِّمت الكفُّ إلى أصابع خمسة، أربعة منها في ناحية والإبهام في ناحية أخرى، وكل أصبع فيه ثلاث عُقد، والإبهام يستطيع أن يهرع لمساعدة باقي الأصابع كلها. ولو اجتمع الناس كلهم على أن يصنعوا شكلاً أجمل من هذا الشكل الذي عليه الأصابع، لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ولو فقد الإنسان أظافره التي تبدو أقل الأعضاء نفعاً، فسوف يكون أعجز المخلوقات إذا ما أراد حك أي قسم من جسمه. ولو طلب المساعدة في هذا الأمر، فإنه لا يستطيع حك المكان الذي يريده إلا بعد تعريف طويل، وبعد محاولات وتجارب. أما يد الإنسان نفسه فلا تجد أي صعوبة في الوصول إلى المكان الذي يُرَاد حكه حتى أثناء النوم والنعاس.



وينبغي أن نعلم أن أبسط الحركات التي نقوم بها بأصابعنا وأيدينا تتطلب حساباً هندسياً بالغ التعقيد والدقة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأيادي المصنوعة للآلات المتطورة لم تصل إلى الآن إلى مستوى أعضاء الإنسان، فليس لنا إلا أن نندهش ونُعجَب بعلم الله الواسع وقدرته العظيمة المتجلية في جسم الإنسان.

رأفة الله تعالى ورحمته

انظر إلى رأفة الحق ﷻ ورحمته التي أخَّرت ظهور الأسنان لدى المولود نحو سنة، لأنه لا يتغذى طوال في هذه المدة بالمعنى الحقيقي بشيء آخر سوى حليب الأم. فهو لا يحتاج إلى الأسنان عندئذ، بل إن وجود الأسنان في سيكون سبباً لمعاناة الأم التي ترضعه.

وكلما كبر الطفل، زادت حاجة جسمه للغذاء ولم يعد الحليب وحده يكفيه. فيشعر بالحاجة إلى الطعام الذي يستدعي المضغ والبلع. فتشكل الأسنان عند الطفل لا يكون قبل وقته ولا بعده، بل تبدأ الأسنان بالظهور عند الحاجة إليها تماماً. وإخراج الحق ﷻ تلك الأسنان القاسية من اللثة الطرية لهوَ من الأعمال المحيرة والمدهشة.

وقد وضع الله تعالى في قلب الوالدَين شعوراً مميزاً ومختلفاً من الرحمة والرأفة لرعاية الطفل، ولولا تلك الرحمة والرأفة، فمن كان يتحمل مشقة رعاية الطفل؟!

يقول الإمام الغزالي:

«فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها، فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك، وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك ولا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل، وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع، وتغضب فتقاتل، والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك. وإنما خاصية الإنسان التي حُجبَت البهائم عنها معرفةُ الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس، إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقرَّبين، ويُحشَر في زمرة النبيِّين والصدِّيقين مقرباً من حضرة رب العالمين. وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم فإنه شر من البهائم بكثير، إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطَّلها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.»[92]

٩٢ الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤، ص ٤٣٩- ٤٤٠.

وجه الإنسان وأنامله

يُروَى أن واحداً قال عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«إني أتعجب من أمر الشطرنج، فإن رقعته ذراع في ذراع، ولو لعب الإنسان ألف ألف مرة، فإنه لا يتفق مرتان على وجه واحد».

فقال عمر بن الخطاب: «ههنا ما هو أعجب منه. وهو أن مقدار الوجه شبرٌ في شبر، ثم إن موضع الأعضاء التي فيها كالحاجبين والعينين والأنف والفم لا يتغير البتة. ثم إنك لا ترى شخصين في الشرق والغرب يشتبهان. فما أعظم تلك القدرة والحكمة التي أظهرت في هذه الرقعة الصغيرة هذه الاختلافات التي لا حد لها».[٩٣]

أما بصمة إصبع الإنسان فهي معجزة أكبر. واليوم تُستعمَل بصمة الإصبع لفتح أجهزة الحاسوب والأبواب؛ لأن كل إنسان لديه بصمة إصبع مختلفة، حتى إن لكل إصبع في اليد الواحدة بصمة مختلفة.

وقد اكتُشِف في نهاية القرن التاسع عشر أن لكل إنسان بصمة إصبع ذات شكل مختلف وخاص به وكأنها رقم

٩٣ الرازي، التفسير، ٤، ١٧٠.



هويته، وقد شُرع في استعمال هذه الخاصية من أجل تحديد الهوية في القضاء والأمن. وفي يومنا الحاضر يوجد فرع علمي يهتم ببصمات الأصابع ويسمى «علم البصمات».

والحق ﷻ الذي أنعم على الإنسان بهذه الميزة يلفت النظر إلى هذه المعجزة الإلهية في آيات القرآن الكريم التي نزلت قبل ١٤٠٠ عاماً. وقد أخبرنا أنه سيعيد أنامل الأصابع إلى حالتها القديمة بعد أن يحيي بدن الإنسان مرة أخرى يوم القيامة، إذ قال في كتابه العزيز:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[٩٤]

فنجد أن القرآن الكريم دائماً في المقدمة والعلم البشري يأتي بعد ذلك ليصدقه.

كما أن بصمة الإصبع تختلف من إنسان لآخر، فإن العيون أيضاً مختلفة. وتستعمل بصمة العين في هذه الأيام للتعرف على الأشخاص من أجل تشغيل الأجهزة والحواسيب وفتح الأبواب.

---

٩٤ القيامة: ٣-٤.

فما أعظم الخالق ﷻ الذي جعل هذه الاختلافات التي لا حصر لها في مساحة صغيرة لا تتجاوز واحد سم[٢].

معجزة الجينات

إن الاكتشافات الجديدة في علم الجينات قد وضعت حقيقة «أن كل إنسان لديه شفرة جينية تختص به وحده وتميِّزه عن باقي البشر». وهذا الشيء الذي يسمى «**الجين**» صغير جداً، حتى إننا لو جمعنا جينات المخلوقات كلها التي تعيش على الأرض فلن تكون بحجم كرة زجاجية صغيرة.

وهذه الجينات- التي لا ترى حتى بالمِجهر- تستقر في خلية كل كائن حي، وتعطي صفات كل إنسان ونبات وحيوان.

وقد يبدو حجم الكرة الزجاجية صغيراً لاستيعاب الصفات الفردية المتميزة لكل البشر الذي يتجاوز عددهم ستة مليارات نسمة، لكن الحقائق العلمية في هذا الشأن لا تدع مجالاً للشك أو الريبة.

فكيف لهذا الشيء المسمى «**جيناً**» أن يخفي في داخله الصفات الكثيرة؟! وكيف يمكن له المحافظة على هذه



الصفات كلها حتى النفسية منها لكل كائن في مكان صغير إلى حد لا يمكن تصديقه؟!

فهناك ملايين من الذرات داخل حيز صغير لا يمكن رؤيته حتى بالمجهر تدير الحياة في الأرض، ولا يدل هذا النظام العجيب إلا على علم الخالق الحكيم وقدرته العظيمة.[٩٥]

يقول ربنا ﷻ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[٩٦]

لكن هذه وغيرها من مظاهر القدرة والعظمة الإلهية التي اكتُشِفت في عصرنا الحاضر قد أعجزت العقول والألباب. لهذا فإن الشاعر ضياء باشا قد كتب بيتاً من الشعر في القرن التاسع عشر يقول فيه:

سبحان من تحيرت في صنعه العقول

سبحان من بقدرته يُعْجِزُ الفحول.

٩٥ علم– أخلاق– إيمان، إعداد: مصطفى رحمي بلابان، ص١٨٩– ١٩٠.
«İlim-Ahlâk-Îman, Derleyen: M. Rahmi Balaban, s189-190»

٩٦ الأعراف: ١٧٢.



من الذي يُشغِّل مصنع الجسم؟

على الإنسان أن يعلم أن الأحياء كلها في السموات والأرض- وأولها هو نفسه- تحتاج دائماً إلى الله تعالى في كل شيء. وعليه أن يدرك على الأقل أن إدارة معظم العمليات في أجسامنا تكون بغير إرادة منا. فنبضات القلب مثلاً والتنفس والعمليات الداخلية في سائر الأعضاء وفي الخلايا وما بينها من تعاون تتم من غير إرادتنا.

ولا شك أنه لو تُرِكَ لنا التحكم في الأعضاء التي تعمل بتوازن مدهش وفق نظام إلهي أو التحكم في إدارة مئات العمليات الكميائية الحيوية في خلية نسيج واحد فقط، لما استطعنا وتسبَّبنا في أعطال كثيرة فيها.[٩٧]

وما أكثر العِبر حين نرى طفلاً صغيراً عمره عشر سنوات يقود بتسخير من الحق ﷻ فيلاً ضخماً يزن عشرة أطنان، ونرى أصحاب الأجسام القوية الضخمة يلقون مصرعهم بفيروس لا يُكادُ يرى بالعين المجردة دليلًا على عجز الإنسان.

٩٧ انظر: شاكر كوجاباش، الخلق في القرآن، ص ١١٥.
«Bkz. Şâkir Kocabaş, Kur'ân'da Yaratılış, s.115»



فعلى الإنسان ألا يغتر بالقدرة والقوة اللتين أعطاهما الله تعالى، وألا ينسى صاحب النعمة الحقيقي، وأن يظل شاكراً بأقواله وأفعاله، وأن يلتجأ دائماً إلى الله تعالى مستشعراً أنه لا يساوي ذرة غبار أمام القدرة الإلهية.

وخلاصة القول أننا هنا ذكرنا باختصار عدة مسائل من تجليات القدرة والحكمة الإلهية الكثيرة التي تُعرَض في الإنسان. وعندما نتفكر في الإنسان فإنه سيتضح لنا أن الله تعالى قد وضع فيه كثيراً من الحكم والأسرار، ولو كُتِبَ كتابٌ عن كل ذرة من ذرات الإنسان فلن يكفي.

لماذا خُلِقَ الإنسان

ما الوظيفة الأصلية للإنسان في هذه الدنيا، وهو الذي خلقه الله تعالى في أجمل شكل وكرَّمَه؟ وما المأمول والمتوقَّع منه؟ وما مسؤولياته؟

يقول الحق ﷻ:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[98]

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[99]

---

٩٨ المؤمنون: ١١٥.

٩٩ الذاريات: ٥٦.



فالإنسان مدين لله تعالى بالشكر آلاف المرات على كل خلية في جسمه، وعليه أن يُظهِر هذا الشكر في صورة عبادة وصدقات وحسنات، والتواصي بالحق والصبر، ذلك أن لكل نعمة ثمن، وكل نعمة تُوجِب الشكر.

يقول رسول الله ﷺ:

«كُل سُلامى عليه صدقة كل يوم، يُعين الرجلَ في دابته، يحامله عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ودلّ الطريق صدقة».[١٠٠]

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

«يُصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى».[١٠١]

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال:

---

١٠٠ البخاري، الجهاد، ٧٢/ ٢٨٩١.

١٠١ مسلم، المسافرين، ٨٤/ ٧٢٠.

«...تعدل بين الاثنين صدقة... وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة».[١٠٢]

فعلينا إذن أن نسعى في هذه الدنيا لنكون عباداً لله تعالى صالحين، وعلينا أن نعيش حياة مملوءة بالعبادة والطاعة والخير والحسنات وأن نستعد للآخرة على أجمل صورة.

حل لغز الموت

يحكي محمد بن كعب القرظي فيقول:

«لقيت عمر بن عبد العزيز بالمدينة في شبابه وجماله ونضارته قال: فلما استخلف قدمت عليه، فاستأذنت عليه فأُذِنَ لي، فجعلت أُحِدُّ النظر إليه، فقال لي: يا ابن كعب، مالي أراك تُحِدُّ النظر؟ قلت: يا أمير المؤمنين، لِمَا أرى من تغير لونك ونحول جسمك ونفار شعرك. فقال: يا ابن كعب، فكيف لو رأيتني بعد ثلاث في قبري وقد انتزع النمل مقلتي، وسالتا على خدي، و ابتدر منخراي وفمي صديداً، لكنت لي أشد إنكاراً، دع ذاك، أعد عليَّ حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ».[١٠٣]

١٠٢ مسلم، الزكاة، ٥٦/ ١٠٠٩.

١٠٣ الحاكم، المستدرك، ٤، ٣٠٠/ ٧٧٠٦.



فعلى الإنسان أن يفكِّر في عاقبته أكثر من أي شيء: كيف ستكون خاتمته؟ ماذا سيقابل في حياة القبر؟ وفي أي مقام سيكون في الآخرة؟ وهذه هي أهم الغيبيات والمجاهيل لكل إنسان؛ أي عليه أن يدرك سرَّ المرحلة بين المهد واللحد، ويفهم حكمة المجيء إلى الدنيا والعبور منها إلى الآخرة. وعليه أن يسعى طول عمره لحل هذا اللغز والوصول إلى السعادة الأبدية.

ولا بد أن يتفكر في فنائه، لأن الحقيقة المطْلقة هي في قول الله تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [١٠٤]

فلكلٍّ منا يومٌ مجهولٌ لا يوم بعده، يقول الحق عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [١٠٥]

إن كل إنسان يدخل إلى هذه الدنيا من باب معين وهو من رحم الأم، ويعيش حياته الدنيا التي هي ميدان سباق مليء بالحواجز مطيعًا لله أو عاصياً، عابداً شاكراً

١٠٤ الرحمن: ٢٦.
١٠٥ ق: ١٩-٢٠.

أو آثماً جاحداً، أو متقلباً في الأحوال، وبعد العبور من ممر الحياة الضيق ينتقل في النهاية إلى العالَم الأبدي من باب القبر.

فالدنيا كمنزل له بابان يدخل الناس من باب ويخرجون من الباب الآخر وذلك من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى يومنا الحاضر. فأين هم الآن؟ وأين سنكون بعد مدة من الزمن؟ الله أعلم... ولكن الذي نعلمه يقيناً أن الموت حلَّ بالظالمين والمظلومين، والعابدين والفاسقين. والكل ينتظر الآن القيامة التي ستكون بداية الحياة الأبدية.

فما لنا ألا نتفكر برهة في أن الأرض التي نمشي فيها قد امتلأت بأبدان مليارات البشر الذين ماتوا فتحولت تلك الأبدان إلى تراب كأنها ظلال متشابكة متداخلة... وغداً سنُدفَن مع أعمالنا في ذلك التراب وسنتلاشى داخل هذه الظلال الكثيفة، وبعد ذلك ستبدأ الرحلة إلى حياة أبدية وخلود لا ينتهي. فلنقف إذن لحظةً ونفكر أي عقل يستبدل اللحظة الفانية بالحياة الأبدية؟! وماذا سيجني من هذه التجارة؟.

يخبرنا ربنا عز وجل بأن الحياة الدنيا قصيرة قياساً بالحياة الأبدية، فيقول في كتابه العزيز:



﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا** ﴾ [١٠٦]

وإذا كان العمر قصيراً إلى هذا الحد، فهل ثمة حماقة أشد من حماقة مَن يفني عمره القصير في ما لا ينفع؟

التفكر في الموت

لقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نذكر الموت كثيراً فقال:

«**أكثروا ذِكرَ هَاذِمِ اللذات**». [١٠٧]

و يقول عليه الصلاة والسلام:

«**يا عجب، كل العجب للمصدِّق بدار الحيوان وهو يسعى لدار الغرور**». [١٠٨]

فالإنسان عندما يدرك أن علاقته بالدنيا ستنقطع، وأنه سيبقى وحده مع عمله سواء أكان خيراً أم شراً، وأنه سيرى ما قدَّم من أعمال، فإنه سوف يبتعد عن المعاصي والذنوب، ويرغب في الأعمال الصالحة أكثر. فالتفكر في الموت وسيلةٌ للاستقامة وتطبيق الدين والاستعداد للآخرة؛ لذلك نجد رسول الله ﷺ يقول في حديثه الشريف:

---

١٠٦ النازعات: ٤٦.

١٠٧ الترمذي، الزهد، ٤/ ٢٣٠٧.

١٠٨ البيهقي، شعب الإيمان، ٧، ٨٤٣/ ١٠٠٥٦.

«أكثروا ذكر الموت، فإنه يُمحص الذنوب ويُزهد في الدنيا، فإن ذكرتموه عند الغنى هدمه، وإن ذكرتموه عند الفقر أرضاكم بعيشكم».[١٠٩]

ويحثنا النبي ﷺ على التفكر في الموت فيقول:

«قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أُذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تذكر الآخرة».[١١٠]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«استحيوا من الله حق الحياء». قال: قلنا: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله، قال: **«ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء».**[١١١]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«أكثروا ذكر الموت، فما من عبد أكثر ذكره إلا أحيا الله تعالى قلبه، وهوَّن عليه الموت».[١١٢]

---

١٠٩ السيوطي، الجامع الصغير، ١، ٤٧/ ٣٠٣٥.

١١٠ الترمذي، الجنائز، ٦٠/ ١٠٥٤.

١١١ الترمذي، القيامة، ٢٤/ ٢٤٥٨.

١١٢ الهيثمي، الزوائد، ١، ٣٢٥/ ٣٠٣٦.



«...فمن تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله، ومن اقتصد أغناه الله، ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله».[113]

وجاء رجل من الأنصارإلى النبي ﷺ، فسلَّم عليه، ثم قال: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل؟ قال: «**أحسنهم خلقاً**»، قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: «**أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم لما بعده استعداداً، أولئك الأكياس**».[114]

تفكر الصحابة الكرام في الموت

خطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوماً فقال:

«أين الوضاءة الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم، أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان، أين الذين كانوا يُعطَون الغلبة في مواطن الحرب قد تضعضع أركانهم، حين أُضنِيَ بهم الدهر، وأصبحوا في ظلمات القبور. الوحا الوحا، ثم النجا النجا».[115]

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ذكرت النار فبكيت، فقال رسول الله ﷺ: «**ما لكِ يا عائشة؟**» قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ:

---

١١٣ الهيثمي، الزوائد، ١٠، ٣٢٥/ ١٨٢٩٤.

١١٤ ابن ماجه، الزهد، ٣١/ ٤٢٥٩.

١١٥ البيهقي، شعب الإيمان، ٧، ٣٦٤/ ١٠١١١.

«أما في ثلاث مواطن فلا يذكر أحد أحداً: حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند الكتب حتى يُقَال: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أو من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حافتاه كلاليب كثيرة وحسك كثير يحبس الله بها من شاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا». [١١٦]

وقال أسيد بن حضير رضي الله عنه:

«لو أني أكون كما أكون محل حال من أحوال ثلاث لكنت من أهل الجنة وما شككت في ذلك: حين اقرأ القرآن وحين أسمعه، وإذا سمعت خطبة رسول الله ﷺ، وإذا شهدت جنازة. فما شهدت جنازة قط فحدثت نفسي سوى ما هو مفعول بها وما هي صائرة إليه». [١١٧]

فوائد التفكر في الموت

إن في الموت دروساً وعبراً كثيرة لمن يعتبر، إذ كفى بالموت واعظاً. ورأس الأمراض المعنوية حبُّ عوارض الدنيا الزائلة مثل المال والمنصب واللذات الشهوانية وارتباط القلب بهذه الأشياء. وحبُّ الدنيا يفضي إلى

---

١١٦ الحاكم، المستدرك، ٤، ٦٢٢/ ٨٧٢٢.

١١٧ أحمد، مسند، ٤، ٣٥١؛ الحاكم، المستدرك، ٣، ٣٢٦، ٥٢٦٠.



الحسد والكبر والرياء والطمع. ولعل التفكر في الموت والقبر وأحوال الآخرة أحد أنفع الأدوية للوقاية من هذه الأخلاق السيئة والأمراض المعنوية.

وفي عهد الدولة العثمانية كانت المقابر داخل المدن على جانبي الطرق وفي ساحات المساجد، وذلك من أجل تسهيل التفكر في الموت وتذكره.

فكثرة تذكر الموت، وتحييد الرغبات الشهوانية، والاستعداد للآخرة يحفظ المرء ويحميه من الندم الذي يُدمي القلب لحظة خروج الأنفاس الأخيرة. وقد أخبرنا الحق ﷻ عن الندم الشديد الذي يشعر به الإنسان حين يَصْحو من غفلة الدنيا لحظة الموت فقال:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١١٨]

فعلينا التيقظ والانتباه في كل وقت والاستعداد بالتمام للحياة الآخرة التي هي الحياة الخالدة حتى لا نعيش ذلك الندم المرير وتلك الحسرة المفجعة.

١١٨ المنافقون: ١٠.



وقد رأى الحسن البصري شيخاً في جنازة فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن:

يا شيخ، أسألك بربك: أتظن أن هذا الميت يود أن يُرَدَّ إلى الدنيا فيتزيد من عمله الصالح، ويستغفر الله من ذنوبه السالفة؟ فقال الشيخ: اللهم نعم، فقال الحسن: فما بالنا لا نكون كهذا الميت؟ ثم انصرف وهو يقول: أي موعظة؟ ما أنفعها لو كان بالقلوب حياة؟ ولكن لا حياة لمن تنادي.

الاستعداد لمصيبة الموت

رُوي عن الحسن البصري أنه قال:

«يومان وليلتان لم تسمع الخلائق بمثلهم قط: ليلة تبيت مع أهل القبور، ولم تبت ليلة قبلها، وليلة صبيحتها يوم القيامة؛ ويوم يأتيك البشير من الله تعالى إما بالجنة أو النار، ويوم تُعطى كتابك بيمينك وإما بشمالك».[١١٩]

إن الموت أعظم بلاء وأشد امتحان، لكن الأسوء من ذلك والأعظم بلاءً أن يعيش المرء غافلاً عن ذكر الموت، مبتعداً عن التفكير فيه، ومن غير أن يؤدي الأعمال التي

١١٩ أبو الفرج بن عبد الرحمن، أهوال القبور، ١٥٤.



تُرضِي الله تعالى وتليق به. أما العاقل فهو الذي يستعد للموت قبل أن يموت ويُطهِّر نفسه من الأخلاق والرذائل القبيحة.

يقول الشيخ سعدي شيرازي:

«يا أخي، ستصير تراباً في نهايتك! فكن متواضعاً مثله قبل أن تصير إليه!»

وقد رُويَ عن عمر بن الخطاب ﵁ أنه قال:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا».[١٢٠]

وعندما تُدفَن أبداننا الفانية، نترك وراءنا أولادنا وأموالنا، ثم تصير أبداننا مع أكفاننا تراباً، ولا يبقى معنا إلا أعمالنا الصالحة.

يقول الإمام الغزالي:

«لا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب أعني طهارته من أدناس الدنيا، يقول تعالى:

﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾[١٢١]

---

١٢٠ الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩.

١٢١ الشمس: ٩.

وأنسه بذكر الله، يقول تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [١٢٢]

وحبه لله ﷻ، يقول تعالى:

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٢٣]

وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكفِّ عن شهوات الدنيا، والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى، والمواظبة عليه والحب لا يحصل إلا بالمعرفة ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر، وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت». [١٢٤]

وإذا استطاع الإنسان أن يستعد للموت، يصبح الموت جميلاً عنده، فلا يخاف منه بعد ذلك.

يقول بشر بن الحارث:

«نِعْمَ المنزل القبر لمن أطاع الله». [١٢٥]

---

١٢٢ الرعد: ٢٨.

١٢٣ آل عمران: ٣١.

١٢٤ انظر: إحياء علوم الدين، ٣، ٢٢٠.

١٢٥ أبو الفرج عبد الرحمن، أهوال القبور، ١٥٧.



وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي:

«يا بني! إن موت كل شخص بحسب ما يحب وباللون الذي يريد. فالموت يبدو كعدو رهيب لمن يعاديه وينفر منه ويكرهه من غير أن يفكر في أنه الوسيلة التي تُوصِل الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى. والموت يبدو أيضًا كصديق أمام من يصادقه ويحبه.

أيها الحبيب الذي يخاف الموت ويخشاه! لو أردت القول الفصل وحقيقة الأمر فأنت لا تخشى الموت في الحقيقة؛ بل تخشى من نفسك أنت.

لأن الذي تراه وتخاف منه في مرآة الموت ليس وجه الموت، بل هو وجهك القبيح أنت. فروحك كشجرة، والموت ورقة فيها، وكل ورقة من جنس شجرتها».

وصفوة الكلام أن موتنا وحياتنا في القبر ترتبطان بأعمالنا وأحوالنا في الدنيا.

لأجل ذلك يبين الله تعالى في كثير من الآيات أحوال الدنيا والآخرة، ويريد منا أن نبتعد عن الاغترار بالدنيا والانخداع بها من خلال إدراكنا أن عاقبتها الفناء والزوال. ويأمرنا بالرغبة في الآخرة بتفكرنا في أنها تقترب منا كل يوم وبأن الحياة هناك حياة أبدية.

فعلى العبد قبل موته أن يتوب عن ذنوبه كلها بتوبة نصوح، وأن يتجنب التقصير في طاعته لأوامر الله تعالى وامتناعه عن نواهيه. وعليه أن يعيد حقوق الذين ظلمهم فرداً فرداً، فيستسمح الذين شتمهم وافترى عليهم واستهزأ بهم واغتابهم بلسانه، والذين ضربهم بيده، والذين أساء الظن بهم بقلبه حتى يؤدي كل الحقوق والديون.

وربما يفرح الغافل في الدنيا حين يأكل حقوق الآخرين، وقد يعتقد أن السعادة في هذه الدناءة، لكنه عندما تنصب موازين العدل غداً، سيعضُّ على أصابعه من الندم إذ يُقَال له:

«أنت حقير، أنت عاجز، أنت فقير مفلس. لن تستطيع أن تعيد أياً من الحقوق هنا، ولن يقبل اعتذارك لأي أَحدٍ».

لما حضرتْ عبد الملك بن مروان الوفاةُ، نظر إلى غسَّال بجانب دمشق يلوي ثوباً بيده ثم يضرب به المغسلة، فقال عبد الملك:

«ليتني كنت غسَّالاً آكل من كسب يدي يوماً بيوم ولم ألِ من أمر الدنيا شيئاً».[١٢٦]

١٢٦ الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤، ٤٠٨.



لكن ينبغي لنا ألا نقنط من رحمة الله تعالى مع تفكرنا الدائم في الموت والاستعداد له.

رُويَ عن عقبة البزار أنه قال:

«رأى أعرابي جنازة فأقبل يقول: هنيئاً يا صاحبها.

فقلتُ: علامَ تهنئه؟

قال: كيف لا أهنِّئ مَن يُذهَب به إلى حبس جواد كريم، نزله عظيم، عفوه جسيم!

قال: كأني لم أسمع القول إلا تلك الساعة».[127]



١٢٧ أبو الفرج، أهوال القبور، ١٥٥.





التفكر في القرآن

إن القرآن الكريم عند أهل الحق والمعرفة بوابةٌ عظيمةٌ تأخذهم إلى أعماق التفكر. إنه منبع فيوضات بحكمه وأسراره المكنونة، ومعجزة بيانية وُضِعَت أمام الإنسان، ومجالٌ رحب للتدبر. وآلاف الكتب التي ألفت في التراث الإسلامي منذ نحو ١٤٠٠ عام هدفها فهم هذا الكتاب.

التفكر في القرآن

إن الإنسان مفطور على الميل إلى التفكر، لكنه يحتاج إلى مرشد يُخلِّص عقله من أغلال الشهوة ويوجِّهه إلى الحق والخير. وأوثق مرشد له القرآنُ الكريمُ، كتابُ الله العليم، وتفسيرُه العملي وهو رسول الله ﷺ.

إن القرآن الكريم عند أهل الحق والمعرفة بوابةٌ عظيمةٌ تأخذهم إلى أعماق التفكر. إنه منبع فيوضات بحكمه وأسراره المكنونة، ومعجزة بيانية وُضِعَت أمام الإنسان، ومجالٌ رحب للتدبر.

والقرآن الكريم شرحٌ للإنسان والكون. فالكون والإنسان والقرآن عوالم ثلاثة مترابطة يشرح بعضها بعضاً في أجمل صورة. ومن يتعمق في القرآن، يدرك خفايا نفسه ويعلم ألطاف ربه تعالى، ويبدأ بتقليب صفحات الحكمة المعروضة في هذا الكون، وتتكشف له أسرار إلهية كثيرة، ويرتقي بقلبه في درجات الروحانية.



وفي القرآن علاج للنفسانيات التي تسوق الإنسان إلى الهلاك، وفيه دواء للتخلص من الفجور الذي يجعل الإنسان أضلَّ من الأنعام، وفيه التدابير التي ينبغي اتخاذها كي لا تتحول مشاعر العدل إلى ظلم. وصفوة الكلام أنَّ وصفة السعادة الأبدية التي يحتاجها الإنسان في كل أحواله لا توجد إلا في القرآن الكريم.

علَّمنا الله تعالى القرآنَ

إن القرآن الكريم أعظمُ هدية من الله تعالى إلى الناس. يقول المولى عزَّ وجل:

﴿**الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[١٢٨]

فمن رحمة الله تعالى العظيمة على الإنسان أن علَّمه القرآن الكريم، فوهبه بذلك كثيراً من الأسرار والحكم. فعلى الإنسان أن يتعلم القرآن الكريم ويزكِّي نفسه بما جاء فيه، ثم يسعى ليكون كقرآن حي بأقواله وأفعاله وأحواله كلها، ثم يبلِّغ هذه الرسالة إلى الناس أجمعين بلسان فصيح بليغ مبين.

---

١٢٨ الرحمن: ١ – ٤.



الكتب كلها من أجل كتاب واحد

إن آلاف الكتب التي أُلِّفَت في التراث الإسلامي غايتها فهم كتاب واحد والتعمق فيه، ومعرفة «إنسان» واحد عن قُرب. يقول الله ﷻ:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١٢٩]

ففي القرآن الكريم شيفرة كل الحكم والعلوم، وفيه مفتاح سعادة الدارين. والقرآن يتقدم العلوم البشرية، فكل اكتشاف علمي يصدِّق حقائق القرآن الكريم ويفسرها يقول الحق ﷻ:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١٣٠]

وكلما تم بحث أو دراسة حول القرآن، ظهرت معجزات جديدة، وصدق رسول الله ﷺ حين قال:

«كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحُكْم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، مَن تركه من جبار قصمه

---

١٢٩ لقمان: ٢٧.

١٣٠ فصلت: ٥٣.

الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾.[131] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هَدَى إلى صراط مستقيم».[132]

ينبغي قراءة القرآن بتفكر

لقد وضَّح علماء الإسلامِ أن الغرض من قراءة القرآن إنما هو التفكر في معانيه وحِكَمه والعمل بمقتضاه.

وليس هناك شيء أكثر فائدة من قراءة القرآن الكريم لزيادة قوة التفكر والتدبر لدى الإنسان، لأن القرآن الكريم كلامُ الله الذي يعرِف أحوالَ الإنسان كلها. والقرآن الكريم يضع الإنسان أمام مرآة الحقيقة، ويجعله يرى نفسه في أصدق شكل وأوضح صورة؛ لأجل ذلك على المؤمن أن يقرأ القرآن كثيراً، ويتفكر في مراد الله تعالى.

١٣١ الجن: ١-٢.

١٣٢ الترمذي، فضائل القرآن، ١٤/ ٢٩٠٦.



إن قراءة آية واحدة بتدبر وتفكر أفضل من ختمة كاملة من غير تدبر وتفكر، لأن في كل كلمة من كلمات القرآن الكريم حقائق لا تُعَدُّ وأسراراً لا تُحصَى، ولا يطَّلع المرء عليها إلا بقلب سليم مُصفًّى ناله بدقة تفكره وسمو أخلاقه وصلاح أعماله. يقول الحق ﷻ:

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١٣٣]

ويقول أيضاً ﷻ:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[١٣٤]

ويقول عزَّ من قائل:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١٣٥]

وذات يوم سُئِلَ النبي ﷺ: أيُّ الناس أحسن صوتاً للقرآن وأحسن قراءة؟ قال:

«**مَن إذا سمعته يقرأ، أُرِيتَ أنه يخشى الله**».[١٣٦]

---

١٣٣ النور: ١.

١٣٤ ص: ٢٩.

١٣٥ محمد: ٢٤.

١٣٦ الدارمي، فضائل القرآن، ٣٤/ ٣٥٣٢.

وأكثر ما يوسس الشيطان للإنسان حين يقرأ القرآن، فالإنسان عندما يقرأ القرآن الكريم ويتفكَّر في وعده ووعيده وآياته البيِّنات وايضاحاته، يميل إلى الأعمال الصالحة أكثر، ويتجنب الشبهات والمحرمات. وقراءة القرآن بتفكر وتدبر أفضل الأعمال، لذلك يحاول الشيطان بكل قوته إبعاد الناس عنه. وبناء على هذه الحكمة أمر الله ﷻ الإنسانَ بالاستعاذة قبل تلاوة القرآن الكريم إذ قال:

﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[137]

كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ القرآن؟

عن حذيفة رضي الله عنه، قال:

«صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع، فجعل يقول: «**سبحان ربي العظيم**»، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: «**سمع الله لمن حمده**»، ثم قام طويلاً قريباً

١٣٧ النحل: ٩٨.



مما ركع، ثم سجد، فقال: «**سبحان ربي الأعلى**»، فكان سجوده قريباً من قيامه».[138]

وكان النبي ﷺ في بعض الأوقات يقرأ آية ويظل يكررها متفكراً متضرعاً حتى يطلع عليه الفجر، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال:

«قام النبي ﷺ حتى أصبحَ بآية والآيةُ:

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[139]».[140]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن النبي ﷺ:

«تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: **﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾**[141]، وقول عيسى عليه السلام: **﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾**[142]، فرفع يديه وقال: «**اللهم أمتي أمتي**»، وبكى، فقال الله عز وجل:

---

138 مسلم، صلاة المسافرين ، ٢٠٣/ ٧٧٢.

139 المائدة: ١١٨.

140 النسائي، الإفتتاح، ٧٩.

141 إبراهيم: ٣٦.

142 المائدة: ١١٨.

«يا جبريل اِذهبْ إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك؟» فأتاه جبريل عليه السلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله عز وجل:

«يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوءك».[143]

لقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على أمته ورؤوفاً ورحيماً بهم، فعلينا أن نتدبر في الحديث السابق ونتساءل: كم نحبه عليه الصلاة والسلام؟ وكم نعيش سنته دليلاً على حبنا له؟

عن عمرو بن مرة رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ:

«**اقرأ علي**» قلت: آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «**فإني أحب أن أسمعه من غيري**» فقرأت عليه سورة النساء، حتى بلغت: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾[144]، قال: «**أمسك**» فإذا عيناه تذرفان.[145]

عن عطاء رضي الله عنه قال:

دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها، فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا. فقال: أقول يا أُمَّهْ كما قال

---

١٤٣ مسلم، الإيمان، ٣٤٦/ ٢٠٢.

١٤٤ النساء: ١٤.

١٤٥ البخاري، التفسير، ٤/ ٩/ ٤٥٨٣.

الأول: زُرْ غِبًّا تزْدَدْ حُبًّا، قال: فقالت: دعونا من رطانتكم هذه. قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من النبي ﷺ، قال: فسكتت ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال:

«يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي»

قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سرَّكَ، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض. فجاء بلال يُؤْذِنُه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال:يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال:

«أفلا أكون عبداً شكوراً؟ لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [١٤٦]». [١٤٧]

١٤٦ آل عمران: ١٩٠-١٩١.

١٤٧ ابن حبان، الصحيح، ٢، ٣٨٦؛ الألوسي، روح المعاني، ٤، ١٥٧.



لقد بكى رسول الله ﷺ في تلك الليلة التي نزلت فيها تلك الآيات وتساقطت دموع عينيه حتى الصباح مثل حبات اللؤلؤ التي تلمع كالنجوم. ودموع المؤمنين التي تنهمر عندما يتفكرون في تجليات القدرة والعظمة الإلهية، ستكون- بلطف الله ورحمته- زينةَ الليالي الفانية، ونوراً في ظلمات القبر، وقطرات الندى في الجنة إن شاء الله تعالى.

وقد قال رسول الله ﷺ في معرض حديثه عن فضائل القرآن الكريم ووجوب قراءته والتفكر فيه وتدبر أسراره ومعانيه:

«...**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده...**».[١٤٨]

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: يا رسول الله، في كم أقرأ القرآن؟ قال: «**في شهر**»، قال: إني أقوى من ذلك... وتناقصه حتى قال: «**اقرأه في سبع**»، قال: إني أقوى من ذلك، قال: «**لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث**».[١٤٩]

١٤٨ مسلم، الذكر، ٣٨/ ٢٦٩٩؛ أبو داود، الوتر، ١٤/ ١٤٥٥.

١٤٩ أبو داود، الوتر، ٨/ ١٣٩٠؛ الترمذي، القراءات، ١١ / ٢٩٤٩



وقال رسول الله ﷺ:

«رُبَّ حامل فقه غير فقيه، ومن لم ينفعه علمه ضره جهله، اقرأ القرآن ما نهاك، فإن لم ينهك فلست تقرؤه».[150]

تلاوة الصحابة الكرام رضي الله عنهم للقرآن الكريم

كان الصحابة الكرام يكثرون التفكر في القرآن الكريم من أجل فهمه، وكانوا يقرؤن الآيات الكريمة بتدبر ويطبقونها في حياتهم. وخير مثال على ذلك قول ابن عمر رضي الله عنهما:

«تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزوراً».[151]

أما عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فمكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها .[152]

وكان ذلك الأمر يرجع إلى أنهم كانوا يأخذون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يشرعون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل فتعلموا العلم والعمل معاً.[153]

١٥٠ الهيثمي، الزوائد، ١، ٤٨١/ ٨٧٠.

١٥١ القرطبي، ١، ٤٠.

١٥٢ الموطأ، القرآن، ١١.

١٥٣ الكتاني، التراتيب، ٢، ١٩١.



وذات يوم أتى رجلٌ زيدَ بن ثابت فقال له:

كيف ترى في قراءة القرآن في سبع؟ قال: ذلك حسن، ولأن أقرأه في نصف شهر أو عشرين أحب إلي، وسلني لمَ ذلك؟ قال: فإني أسألك، قال زيد: لكي أتدبر وأقف عليه.[١٥٤]

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«من أراد العلم فليثوِّر[١٥٥] القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين».[١٥٦]

أخرج سعيد بن منصور عن المطلب بن عبد الله بن حنطب أن رسول الله ﷺ قرأ في مجلس ومعهم أعرابي جالس:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١٥٧]

فقال الأعرابي: يا رسول الله، أمثقال ذرة؟ قال: «**نعم**».

فقال الأعرابي: واسوأتاه! ثم قام وهو يقولها، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان**».[١٥٨]

١٥٤ الموطأ، القرآن، ٤؛ البيهقي، شعب الإيمان، ٣، ٤٠٧/ ١٨٨٥.

١٥٥ أي يتفكر في معانيه وتفسيره وقراءته.

١٥٦ الهيثمي، الزوائد، ٧، ١٦٥؛ البيهقي، شعب الإيمان، ٢، ٣٣١.

١٥٧ الزلزلة: ٧- ٨.

١٥٨ السيوطي، الدر المنثور، ٨، ٥٩٥.

تلاوة أولياء الله الصالحين للقرآن الكريم

قال الفضيل بن عياض رحمه الله:

«إنما نزل القرآن ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملاً. فقيل كيف العمل به؟

قال: أي ليُحِلّوا حلاله، ويُحرِّموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه».[١٥٩]

وفي كل آية من آيات القرآن الكريم معان كثيرة، ورُوِيَ عن الإمام الشافعي رحمة الله عليه أنه قال في سورة العصر:

«لو تدبر الناس في هذه السورة، لَوَسِعتهم».[١٦٠]

وروى الأصمعي حادثةً حولَ التفكر في القرآن الكريم فقال:

«دخل رجل على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك فقال له الخليفة: عظني يا أعرابي. فقال: كفى بالقرآن واعظاً. أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم:

١٥٩ الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم العمل، ٧٦.

١٦٠ ابن كثير، تفسير، ٨، ٤٧٩.



﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦١]

ثم قال:

يا أمير المؤمنين هذا جزاء من يطفف في الكيل والميزان، فما ظنك بمن أخذه كله». [١٦٢]

وقال محمد خادمي أحد العلماء العثمانيين المشاهير:

«إن السبيل الوحيد للخلاص من كل أنواع الهموم البلايا والمصائب هو التمسك بالقرآن، وتطبيقه في الحياة. فداوموا على العبادة والطاعة لا سيما أفضل العبادات والطاعات قراءة القرآن الكريم بتدبر وأدب وحسن ترتيل. ذلك أن قراءة القرآن على هذا النحو تشبه التحدث مع الله تعالى». [١٦٣]

---

١٦١ المطففين:١-٦.

١٦٢ محمد صفوت، جمهرة خطب العرب، ٣، ٢٤٣.

١٦٣ انظر: الخادمي، مجموعة الرسائل، ١٢ ، ١٩٤، ٢٠٠.

أمثلة على التفكر من القرآن الكريم

التفكر في علم الله تعالى

يشير الحق ﷻ في كثير من آيات القرآن الكريم إلى علمه الواسع ويدعو الناس إلى التفكر، فيقول مثلاً:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [١٦٤]

أي إن كل مؤمن عندما يقرأ هذه الآيات الكريمة، عليه أن يقف عندها قليلاً ويتدبر فيها. ذلك أن كل مؤمن يوقن أن الله تعالى عنده مفاتح الغيب وخزائنه، أي أنه تعالى عالِمٌ بالكليات والجزئيات مستأثر بعلمه، وما نعلمه نحن لا يمكن أبداً أن يصل إلى علمه؛ فالله سبحانه وتعالى يعلم ما في البر من نبات ودواب وأحجار وأمدار وغير ذلك، وما في البحر من حيوان وجواهر وغير ذلك، كما أن علمه تعالى محيط بنا وبما أُعِدَّ لمصالحنا، ويعلم عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال، والورقة التي تسقط يعلم متى تسقط، وأين تسقط وكم تدور في الهواء. ويعلمها كيف

١٦٤ الأنعام: ٥٩.



انقلبت ظهراً لبطن إلى أن وقعت على الأرض. ويعلم ما لم يكن هل يكون أم لا يكون؟ وما يكون كيف يكون؟ وما لا يكون إن كان كيف يكون؟ أي إنه ﷻ هو العليم بكل شيء وكل علم بني آدم لا يساوي ذرة في علم الله. فالله وحده هو من عنده مفاتح الغيب تلك ولا يطلع عليها غيره سبحانه تعالى.[١٦٥]

أما الأستاذ سيد قطب فقد تحدث عن علم الله تعالى مفسراً نفس تلك الآية الكريمة فقال:

«إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح، ووراء حدود هذا الكون المشهود. وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد. وهو يرتاد- أو يحاول أن يرتاد- أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل؛ البعيدة الآماد والآفاق والأغوار.. مفاتحها كلها عند الله؛ لا يعلمها إلا هو.. ويجول في مجاهل البرِّ وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله. ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا

١٦٥ انظر: أبو حيان، تفسير البحر المحيط، تفسير سورة الأنعام: ٥٩.



يحصيها عدٌّ، وعين الله على كل ورقة تسقط، هنا وهنا وهناك. ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله. ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط. إنها جولة تُديرُ الرؤوس، وتذهل العقول، جولة في آماد من الزمان، وآفاق من المكان، وأغوار من المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول. جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف، يَعْيَى بتصور آمادها الخيال. وهي ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في بضع كلمات؛ ألا إنه الإعجاز!».[١٦٦]

فكلما تفكر المرء بهذه الصورة في القرآن الكريم والكون، أدرك ولو نبذة علم الله وقدرته. أما الذين ابتعدوا عن التفكر فهم يتخبطون في حياة شهوانية دنيئة محرومين من الأسرار والحكم الإلهية.

يقول سعدي الشيرازي:

«كل ورقة خضراء في نظر العقلاء ديوانٌ لمعرفة الله تعالى، أما الغافلون فالأشجار كلها عندهم لا تساوي ورقة واحدة».

١٦٦ سيد قطب، الظلال، ٢، ١١١١–١١١٣، (الأنعام: ٥٩).



يقول الحق عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [١٦٧]

عندما يقرأ المرء هذه الآية بكلماتها المعدودة، يقف أمام حشد هائل عجيب من الأشياء، والحركات، والأحجام، والأشكال، والصور، والمعاني، والهيئات، يعجز خياله عن الإحاطة بها! ولو أن أهل الأرض جميعاً وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون ما يقع في لحظة واحدة مما تشير إليه الآية، لأعجزهم بلا شك تتبعه وإحصاؤه!

فكم من شيء في هذه اللحظة الواحدة يلج في الأرض!

وكم من حبة تسقط في باطنها!

وكم من دودة ومن حشرة ومن زاحفة تدخل الأرض في أقطارها المترامية!

وكم من قطرة ماء ومن جزيء غاز ومن إشعاع تنفذ في الأرض في أرجائها الفسيحة!

وكم وكم من أمور لا نعلمها! وكل ذلك بأمر الله وتقديره...

---

١٦٧ سبأ: ٢.



ومقابل ما يدخل في الأرض كم من شيء يخرج منها، وكم من نبتة تنبت فوقها! يقول الله ﷻ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [168]

ويقول أيضاً:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [169]

وكم من نبع يفور! كم من بركان يتفجر! كم من غاز يتصاعد! كم من حشرة تخرج من بيتها المستور! كم وكم مما يعلمه البشر ومما يجهلونه وهو كثير! وكم مما ينزل من السماء! كم من نقطة مطر! وكم من شهاب ثاقب! وكم من شعاع محرق! وكم من شعاع منير!

وكم من قضاء نافذ ومن قدر مقدور! كم من رحمة تشمل الوجود وتخص بعض العبيد! كم من رزق يبسطه

---

١٦٨ الشعراء: ٧.

١٦٩ عبس: ٢٤-٣٢.



الله تعالى لمن يشاء من عباده ويقدر! وكم وكم مما لا يحصيه إلا الله تعالى!

وكم مما يعرج فيها! كم من نفس صاعد من نبات أو حيوان أو إنسان أو خلق آخر مما لا يعرفه الإنسان! كم من دعوة إلى الله تعالى معلنة أو مستترة ومستورة لم يسمعها إلا الله في علاه!

وكم من روح من أرواح الخلائق التي نعلمها أو نجهلها متوفاة! كم من ملك يعرج بأمر من روح الله! كم من روح يرف في هذا الملكوت لا يعلمه إلا الله!

ثم كم من قطرة بخار صاعدة من بحر، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم! كم وكم مما لا يعلمه سواه!

وكم في لحظة واحدة! وأين يذهب علم البشر وإحصاؤه لما في اللحظة الواحدة ولو قضوا الأعمار الطوال في العد والإحصاء! وعلم الله الشامل الهائل اللطيف العميق يحيط بهذا كله في كل مكان وفي كل زمان. وكل قلب وما فيه من نوايا وخواطر وما له من حركات وسكنات تحت عين الله، وهو مع هذا يستر ويغفر وهو الرحيم الغفور.[١٧٠]

١٧٠ سيد قطب، الظلال، ٥، ٢٨٩١-٢٨٩٢ (سبأ: ٢-٣).



سورة الواقعة

علينا أن نتفكر في كل سورة وكل آية في القرآن الكريم، وسنقف هنا عند بعض الآيات التي وردت في سورة الواقعة والنحل والروم.

يبدأ الله تعالى سورة الواقعة بتذكيرنا بعظمة يوم القيامة ورهبته، ويخبرنا أنه في ذلك اليوم يُعَزُّ أقوام ويُذَلُّ آخرون، ويُبيِّن أن الناس بعد الحساب ينقسمون إلى ثلاثة أقسام.

ثم يصوِّر الحق ﷻ أحسنَ تصوير النَّعمَ التي سينالها عبادُه المقربون والصالحون الذين أعطوا صحائف أعمالهم بيمينهم. ويصوِّر الحق ﷻ عاقبة مَن يأخذون كتابهم بشمالهم وشدة العذاب الذي ينتظرهم، ويُحذِّر عباده من الذنوب بهذه اللوحة التي تقشعر منها الجلود والأبدان.

خلق الإنسان

وبعد ذلك ينبِّه عباده من الوقوع في هذه الأحوال المؤلمة بدعوتهم إلى التفكر، فيقول ﷻ:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ. أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ. أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [١٧١]

١٧١ الواقعة: ٥٧-٥٩.



فما أعظم الصنعة الإلهية التي خلقت هذا الإنسان من ماء مهين وجعلت فيه كل هذه الأجهزة المعقَّدة التي تعمل بدقة وانسجام لا مثيل له.

الموت والبعث

يقول المولى ﷻ:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [١٧٢]

حقيقة الموت وما أعظمها من حقيقة. لا أحد يستطيع أن يفر من الموت. ولو أراد الحق ﷻ لأهلك المنكرين، وجاء بمَن هم أفضل منهم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [١٧٣]

إن الله سبحانه وتعالى الذي أبدع الخلق الأول وجعله في أفضل شكل وأكمله قادرٌ على أن يعيد الإنسان مرة أخرى؛ فلا بد من التفكر في هذا الأمر والاستعداد للآخرة والبعث بعد الموت.

---

١٧٢ الواقعة: ٦٠-٦١.

١٧٣ الواقعة: ٦٢.



البذور والنباتات

يقول الحق ﷻ:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ. أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ. لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ. إِنَّا لَمُغْرَمُونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [١٧٤]

ينبغي لنا أن ننظر إلى الزروع والأشجار والنباتات حولنا ونعتبر بها، وأن نشاهد صنعة الخالق ﷻ ونعمه؛ تلك النعم التي لو لم يمنحها الله سبحانه وتعالى للإنسان، لذهبت كل جهوده أدراج الرياح، ولما استطاع أن يزرع حتى نبتة واحدة. ولنا أن نعلم أن هذه الخضرة كلها التي حولنا لو تحولت إلى صحراء جرداء في لحظة، فلن نستطيع أن نحتمل هذه الحياة.

الماء العذب

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ. لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [١٧٥]

١٧٤ الواقعة: ٦٣-٦٧.

١٧٥ الواقعة: ٦٨-٧٠.



إن الماء العذب الذي ينزل من السماء كرمٌ كبيرٌ وعطاءٌ من الله عظيمٌ. فلو نزل هذا الماء مالحاً من السماء فمن يستطيع أن يُحَلِّيه ويجعله عذباً، أو لو حدث جفاف فمن لديه القدرة على أن ينشئ السحاب ويُنزِل المطر؟!

النار

تقول الآيات الكريمة:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ. نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾[١٧٦]

والحق أنه علينا أن نتفكر فيمَن خلق النار التي لها فوائد كثيرة للإنسان في الحياة، وفيمَن خلق الأشجار التي نحرقها ونستخدمها في أغراضنا المختلفة.

فلننظر إلى قدرة الله سبحانه وتعالى الذي يخرج النار من الشجر الأخضر، ولنتفكر في ماهية تلك النار كيف تُحرَق وكيف تَحرِق!

والسائرون في الصحراء يلجؤون إلى النار حين يحل الليل ويشتد برده، فالنار وسيلة لا غنى عنها للمسافرين في التدفئة والإنارة وطهي الطعام. والبشر جميعهم

١٧٦ الواقعة: ٧١-٧٣.



محتاجون لهذه النار، فالحياة بلا نار حياة عسيرة إن لم تكن مستحيلة.

وعلى هذا فإن النار معجزة في حد ذاتها وهي حاجة ضرورية مثل الماء والهواء والتربة. وقد قال رسول الله ﷺ:

«**المسلمون شركاء في ثلاث: في الكلإ، والماء، والنار**».[177]

وعلينا أن نتذكر جهنم بالنظر إلى نار الدنيا، وعلينا أن نتذكر الحمم في طبقات الأرض تحتنا والشمس التي هي كتلة من اللهب فوقنا، ونشكر ربنا الذي جعلنا في جو معتدل بين نارَين.

فعلى الإنسان أن يُسبِّح الله تعالى كثيراً وهو يرى هذه النعم كلها.

﴿**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾[178]

فلتُسبِّح ألسنتنا بالذكر، وتلاوة القرآن، وتبليغ كلام الله؛ ولتُسبِّح قلوبنا بالشعور بالحمد والشكر؛ ولتُسبِّح أعضاؤنا بالصلوات النافلة، والصيام، وقضاء حاجات الناس.

---

١٧٧ أبي داود، البيوع، ٦٠ / ٣٤٧٧.

١٧٨ الواقعة: ٧٤.



النجوم

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[179]

لا حدود للعظمة الإلهية... يوجه الله ﷻ تفكيرنا إلى آفاق غير محدودة.

فالسماء كبحر لا ساحل له...

يلفت الله تعالى في هذه الآيتين أنظارنا إلى أوقات السحر والتهجد حين يبدأ غياب النجوم.

ومن الأمور التي يذكرها الله في هذا القسم الوحيُ الذي نزل على رسول الله ﷺ، وهذا الوحي إما كان آية أو بضع آيات أو سوراً كاملة، وكل وحي منها يسمى «**نجماً**».

القرآن الكريم

يقول الحق ﷻ:

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[180]

لا بد من تعظيم القرآن الكريم، فلا يلمس المصحف الشريف المُحدِث، فالمحدث لا يجوز له لمس المصحف

---

١٧٩ الواقعة: ٧٥-٧٦.

١٨٠ الواقعة: ٧٧-٧٩.

ولو بِكُمِّ قميصه. ومن الغفلة الكبيرة أن يأتي المرء بسلوك يخالف حرمة القرآن وتعظيمه، لأن الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ. وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [١٨١]

فمن أعظم النعم التي أوتيناها أن يخاطبنا الله تعالى بالقرآن. وشكرُ هذه النعمة تكون بتدبرنا آيات هذا الكتاب المبين والعيش بمقتضى أحكامه.

الموت

يقول الحق عزّ وجلّ:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ [١٨٢]

إذا حان الأجل وجاء الوعد الحق، فلا يستطيع الإنسان أن يعيد الروح إلى مكانها.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ. فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ. تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٨٣]

---

١٨١ الواقعة: ٨٠-٨٢.

١٨٢ الواقعة: ٨٣-٨٤.

١٨٣ الواقعة: ٨٥-٨٧.



وهكذا تكون قدرة الله تعالى... وهكذا يكون عجز الإنسان... فالناس كلهم ساعتئذ سيستلمون ويحنون الرقاب مضطرين مجبرين على ما يأتي من قدر الله. وحتى المتكبرون والطغاة الذين يعارضون أمر الله ويعاندون في حياتهم لن يستطيعوا رفع أصواتهم معترضين في تلك اللحظة، فالإنسان عند رفع حُجُبِ الغفلة عن إدراكه لحظة خروج روحه سيعلم أن الحُكمَ والمُلكَ في الكون لله الواحد القهار وحده.

الميت في واحدة من ثلاث أحوال:

١. ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[١٨٤]

٢. ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾[١٨٥]

٣. ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ. فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ. وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[١٨٦]

---

١٨٤ الواقعة: ٨٨-٨٩.

١٨٥ الواقعة: ٩٠-٩١.

١٨٦ الواقعة: ٩١-٩٤.

ويدخل الكفار والمسلمون العصاة في القسم الثالث.

ويختم الحق ﷻ سورة الواقعة بقوله:

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [187]

سورة النمل

يوضح الحق ﷻ الحكيمُ العليمُ بكل شيء في هذه السورة أنه هو الذي أنزل القرآن الكريم. ونرى في السورة عظيمَ قدرة الله تعالى وعلو قدره وشأنه، والمعجزات التي أنعم الله تعالى بها على رسوله ﷺ والتي تفوق كل تصور وخيال. وتبشِّر السورة بأن بعثة النبي ﷺ وسيلة عظيمة لارتقاء البشر.

ومن أجل إيضاح هذه الأمور أشارت السورة إلى قصص أنبياء الله تعالى موسى وداود وسليمان وصالح ولوط عليهم السلام.

وهذه القصص أدلةٌ نقليةٌ توضِّح قدرة الحق ﷻ وكماله. وعندما لم ينفع المشركين ذكرُ هذه القصص، قدَّم الحق ﷻ لهم أدلة عقلية أكثر وضوحاً، ومن ذلك قوله تعالى:

187 الواقعة: ٩٥-٩٦.



﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [188]

وكان رسول الله ﷺ يقول بعد قراءة هذه الآية:

«بل الله خير وأبقى وأحَكَمُ وأَكرمُ وأَجَلُّ وأَعظمُ مما يشركون». [189]

وتستمر الآيات الكريمة في الدعوة إلى التفكر في المخلوقات التي هي علامات على القدرة الإلهية:

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ. أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [190]

---

١٨٨ النمل: ٦٠.

١٨٩ البيهقي، شعب الإيمان، ٣، ٤٣٠/ ١٩١٥.

١٩٠ النمل: ٦١–٦٤.

سورة الروم

يدعو الحق ﷻ عباده في هذه السورة مرة أخرى للتفكر فيقول:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ. أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [١٩١]

ويعرض الله تعالى بعد عدة آيات الأدلة المتتالية على وحدانية الحق ﷻ وقدرته وعظمته، فيقول:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ

١٩١ الروم: ٨ – ٩.



خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ. وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ . وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [١٩٢]

الغافلون عن آيات الله

يصف الحق ﷻ عباده الخواص فيقول:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [١٩٣]

فالمؤمن حين يتلو آيات القرآن أو ينصحه أحد بآية كريمة، يستمع بأذن واعية ويتفكر بها ويطيع ما جاء فيها.

يقول جل شأنه:

---

١٩٢ الروم: ١٩-٢٦.

١٩٣ الفرقان: ٧٣.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [194]

ويشير الله تعالى في آية أخرى إلى الخسران المبين الذي سيناله من لم يستفض من معين القرآن الكريم وروحانيته، ولم يستطع أن يفهم أسراره ورموزه وإشاراته، ولم يستمع إلى أوامره ونصائحه فيقول:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [195]

فالمتكبرون الذين يغترون بأنفسهم ويتفاخرون على الآخرين ويتعالون عليهم لا يمكنهم أن يتفكروا في معاني الآيات الكريمة ولا يعتبروا بها، لأن الحق ﷻ لا يكرم قلوب الظالمين فهمَ حِكَم القرآن ولا يكرمها الاطلاع على تجليات العظمة الإلهية، وقد تركهم المولى ﷻ محرومين من هذا الكرم الإلهي الكبير؛ لأن القرآن الكريم الذي

١٩٤ الأنفال: ٢.

١٩٥ الأعراف: ١٤٦.



هو كنز الأسرار والحكم الإلهية لا يليق به أن يكون في مستنقعات القسوة تلك، إنما ينفذ القرآن في قلوب عباد الله المتقين ويكون لهم نوراً يرشدهم إلى الحق.

وأما الغافلون المحرومون من التقوى فهم في أسوء حال، لأنهم ما تفكروا في القرآن حق التفكر فأصيبوا بهوى النفس؛ ولو تفكر هؤلاء في القرآن الكريم وتدبروه، لما ظلوا غافلين عن أوامر الله ونواهيه؛ بل قبلوا الحقَّ، وتخلَّقوا بالأخلاق الحسنة، وأدركوا الأسرار الإلهية والحِكَم الربانية، وانفتح لهم في آخر المطاف طريق إلى السعادة والراحة الأبدية.

والخلاصة أنَّه لا ينبغي للمؤمن أن يضيع عمره الذي هو بضاعته للآخرة بأن يبتعد عن التفكر. إذ يقول الحق ﷻ محذِّراً مَن لا يعرف قيمة الوقت ويضيِّعه في غير محله:

﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [١٩٦]

لأجل ذلك ينبغي أن تكون نظرة المؤمن عبرة، وسكوته تفكراً، وعليه أن يتفكر في الحقائق الإلهية عن طريق

---

١٩٦ العصر: ١-٣.



الآيات القرآنية ويتعمق فيها، ويسعى لمعرفة الله تعالى حقَّ المعرفة. وعلى المؤمن أن يرى القرآن الكريم رسالةً أُرسِلَت من الله تعالى إلى عباده، وأن يتمسك بهذا الكتاب المبين الذي هو ينبوع السعادة الأبدية.

المراقبة الدائمة

إن المراقبة مصدر من راقبه أي حرسه ولاحظه، ويُقَال راقب الله في عمله أو أمره، أي خافه وخشيه. والمراقبة في اصطلاح التصوف: حفظُ القلب عما يضره، واستشعار العبد بأن الله يراه وينظر إلى قلبه. فالمراقبة هي توجه الإنسان إلى قلبه ومحاسبته الدائمة لنفسه وتفكره في أحوالها، عندها يصل إلى درجة روحية تجعله يلتجئ إلى ربه بقلب متيقظ في كل لحظة.

أقصر الطرق للوصول إلى الحق عَزَّوَجَلَّ

إن عالَم القلب ساحة للتفكر واسعة سعة العوالم الظاهرة. وما أجمل القصة التي رواها مولانا جلال الدين الرومي والتي توضح أهمية المراقبة، إذ قال:

«في يوم من الأيام ذهب صوفيٌّ إلى إحدى الحدائق الغنَّاء طالباً البهجة والتفكُّر العميق، فانتشى لمَّا رأى تنوع الألوان هناك، ثم أغمض عينيه وبدأ بالمراقبة والتفكر.



فمرَّ به غافل، فظن أن الصوفي نائم، وتعجب من حاله وضاق صدره، ثم قال له:

«كيف لك أن تنام؟ افتح عينيك وتأمل في عناقيد العنب هذه، والأشجار المزهرة، وهذه الأرض بأعشابها المخضرة، وانظر إلى آثار رحمة ربك!»

فأجابه الصوفي:

«أيها الغافل، فلتعلَمْ جيدًا أن أعظم آثار الرحمة الإلهية إنما هو القلب، وكل شيء خارجه ظلٌّ لهذا الأثر العظيم. إنك ترى جدول الماء يجري بين الأشجار، فترى انعكاس صورة الأشجار في المياه البراقة على طرفي الجدول...إن ما تراه داخل هذه المياه ما هو إلا جنةٌ من الخيال، أما الجنة الحقيقية ففي القلب؛ لأن القلب محلُّ نظر الله، وانعكاسُ هذه المشاهد البديعة التي تراها انعكاسٌ من العالم الدنيوي المكوَّن من الماء والتراب.

ولو لم تكن الإبداعات في هذا العالَم مجرد انعكاس من عالم الفؤاد، لمَا سمَّى الله سبحانه وتعالى عالم الخيال هذا بعالم الانخداع والاغترار، يقول الله تعالى:

﴿...وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[197]

١٩٧ آل عمران: ١٨٥.



إن الغافل الذي يظن أن الدنيا هي الجنة ويقول: «الجنة هنا!» ما هو إلا إنسان انخدع بظاهر جدول الماء.

ومَنْ يبقَ بعيداً عن الجنان والبساتين الأصلية أي عن أولياء الله، ينخدع أشد الانخداع بميله إلى هذا الخيال.

فنوم الغفلة هذا ينتهي يوماً ما، فتُفتح حينئذ البصائر، وتُرى الحقيقة، لكن ما فائدة رؤية المشهد الحقيقي مع خروج آخر نَفَس؟

طوبى لذلك العبد الذي مات قبل أوان موته، واستطاعت روحه أن تشم رائحة الجنة».

إن المراقبة طريق مهم للوصول إلى مرضاة الله تعالى، والحصول على العلم والعرفان والحكمة والأسرار.

والمؤمن الذي يريد أن يقوم بالمراقبة عليه أن يجهِّز قلبه أولاً، فيجلس كأنه في صلاة ويحني رأسه. ثم يركِّز وهو على تلك الحال ويتوجه بقلبه إلى ربه، ويحدِّث نفسه متفكراً بقوله: «إن الله يراني دائماً وهو معي في كل لحظة وهو أقرب إلي من نفسي». ونتيجة هذا الأمر أن النور الإلهي الذي يحيط بكل شيء سيبدأ في التدفق إلى قلبه.

والمراقبة عند أهل الله أقصر طريق للتقرب إلى الله تعالى، فالتوجه إلى الله تعالى بالقلب أكثر تأثيرًا وأعظم



أهمية من التوجه إليه بالأعضاء الأخرى. إذ يمكن لكل امرئ التوجه إلى الله تعالى بالقلب في كل وقت، أما العمل بالجوارح فيصعب في بعض الأحوال مثل المرض والشيخوخة.

وقد قال أهل الحكمة:

«نَفَسٌ واحد بمراقبة الله تعالى وطمأنينة القلب خيرٌ من أن يكون لك مُلكُ سليمان».

وقد أخبرنا النبي ﷺ عن عظم ثواب المراقبة، فذكرَ لنا أنه مِن السبعة الذين يظلَّهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله:

«**رجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**».[198]

أنواع المراقبة

المراقبة: أن تعيش شعور الإحسان الذي عرَّفه رسولنا الكريم في حديثه مع جبريل حين سأله ما الإحسان؟ فقال:

«**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».[199]

إن بلوغ الكمال في الإيمان والإسلام مرتبط بالوصول إلى درجة الإحسان. وإذا أردنا أن نعيش في شعور

---

١٩٨ البخاري، الآذان، ٣٦/ ٦٦٠.

١٩٩ البخاري، الإيمان، ٣٨/ ٥٠.

الإحسان، فلا بد أن ندرك أن الله تعالى يرانا دائماً، وأن نراقب أنفسنا ونصلح من أحوالنا.

وينبغي ألا تغيب عن أذهاننا حقيقة أن الله تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد.

وإذا أدرك القلب هذه الأمور ووعى، انتقل العبد من الإيمان إلى الإحسان، وأدَّى الأعمال الصالحة كلها بقلب مليء بالروحانيات، وتلذذ بالتفكر في القرآن والكون والإنسان.

وأهل التصوف يتفكرون أولاً في بعض الآيات كي يستطيعوا قراءة القرآن الكريم كله بتدبر وتفكر، فيختارون أكثر الآيات تأثيراً في قلب الإنسان والتي تقوي ارتباطه بالله عز وجل وحبه له.

وثمة أربع مراحل للمراقبة هي:

١- مراقبة الأحدية

وفي هذه المراقبة يتفكر العبد في «سورة الإخلاص». ويتفكر في أحدية الله تعالى المتصف بصفات الكمال، والمنزه عن النقائص.

ويتصوَّر معاني آيات المراقبة بلا ذهاب إلى التشبيه وإسناد الجهة. ولا يتفكر إلا في أن الله تعالى متصف بهذه



الصفات. وعندما يضعف هذا التصور، يعيد قراءة الآيات الكريمة مرة أخرى، ويتفكر من جديد. وكلما داوم المؤمن على هذا، زاد شعور الإحسان لديه، ونال نصيباً من معرفة الله تعالى.

وسورة الإخلاص تذكرنا في الأساس أنَّ الله أحد لا شريك له ولا شبيه له وأنَّ الوحدانية صفته وحده.

وليس في هذه الدنيا تجل لذات الله تعالى أبداً. ومن صفاته «مخالفة للحوادث» فلا يُشبَّه بأحد من مخلوقاته. ومهما فكرتَ ومهما شطحَ فكرك في الكون، فذات الله تعالى أعظم منه. فربنا ﷻ هو المتعالي، هو أعلى وأعظم مما نعرفه، وله كمال يعجز البشر عن الإحاطة به. وليس له ضد ولا ند فلا يمكن إدراك ذاته.

والله تعالى هو الصمد، أي لا يحتاج إلى شيء أبداً، وكل مخلوق يحتاج إليه، والقُوى كلها في الكون تعود إليه. وعلى الإنسان أن يدرك عجزه ويفكر في قدرة الله تعالى وعظمته، وعليه أن يستسلم له بكل كيانه. وعلى الإنسان أن يتجرد من أنانيته ويدرك عجزه ويقول دائماً «سبحانك وغفرانك يا رب» ويسعى لكي يصبح محل تجلٍّ لصفات الله الجمالية.



والأحدية لا تقبل القسمة والتعدد والتجزئة والشرك؛ لهذا فإن الله ﷻ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد. يعني أن الله تعالى ليس أب أو أم أو ولد كما تدعي بذلك النصرانية، لأن عقيدة التوحيد لا تتحمل الشرك. فالذي يلد يتجزأ والذي يتجزأ يفنى، والشيء الذي يلد سيُبتَلى بالفناء في النهاية. والولادة صفة الفانيين الذين لا يستطيعون البقاء فيحتاجون للنسل من أجل الاستمرار والبقاء. واحتياج كهذا يعد عيباً ونقصًا في حق الله تعالى الأحد الصمد الواجب الوجود الذي جمع الكمالات كلها وهو سبحانه منزه عن كل أنواع العيوب والنقائص.

وصفوة الكلام أن القلب الذي هو مركز التدبر والتفكر عليه أن يستشعر تجليات قدرة الله وعظمته، وأن يكون دائماً في حال الحمد.

٢- مراقبة المعية

في هذه المرحلة يتفكر العبد بعمق في معاني الآية الكريمة:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [٢٠٠]

٢٠٠ الحديد: ٤.



ويدرك مع مَن يجب أن يكون، فضرورة المعية مع الله تكون إدراكاً راسخاً في القلب.

فالعبد لا يبقى خارج علم الله تعالى وحكمه بأي شكل من الأشكال، إذ من المحال أن يبقى خارج علم الله تعالى، أكان في أعماق الأرض أو في السماء. فنبض القلوب، والتنفس، والرؤية، والسمع، وعمل الأعضاء الأخرى بصورة منتظمة، كلها تثبت أن الحق عز وجل دائمًا مع عباده. وعندما تحين الآجال فإن الله تعالى ينزع هذه القدرات عن الإنسان ويتوفاه، يقول الحق عَزَّوَجَلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٢٠١]

إن أقرب خليل للإنسان هو الله سبحانه وتعالى، فهو أقرب إليه من أقاربه بعلمه وقدرته. والأقارب لا يعلمون إلا ظاهر الإنسان ولا ينفعون في همومه، ولا يستطيعون حل كثير من مشاكله، أما الله تعالى فيعلم أحواله ويفعل

٢٠١ المجادلة: ٧.



ما يشاء، لا سيما عند الموت... فلا أحد عندئذ أقربُ للإنسان من الله ﷻ. يقول الله ﷻ:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [٢٠٢]

ويحذِّر الله جل ثناؤه عباده الذين ينسون وجوده معهم في كل وقت ولا يشعرون بذلك في قلوبهم فيقول لهم :

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [٢٠٣]

وأيما عبد يستشعر معية الله تعالى دائماً ويدرك أن الله تعالى يرى ما يعمل، فإنه يبتعد عن الذنوب والمعاصي ويرعى حدود الله تعالى.

٣- مراقبة الأقربية

في هذه المرحلة يتفكر العبد في قوله تعالى:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [٢٠٤]

---

٢٠٢ الواقعة: ٨٣-٨٥.

٢٠٣ النساء: ١٠٨.

٢٠٤ ق: ١٦.



فالله تعالى أقرب إلينا منا، ويعلم أفكارنا ونياتنا وأحاسيسنا. والله وحده يعلم كل ما يرد من أفكار وخواطر على قلب الإنسان، تلك التي لا يعلمها حتى الملائكة الموكولون بكتابة الأعمال والأقوال، فهو تعالى مَن خلق هذه الأفكار مثلما خلق كل شيء.[٢٠٥] فيقول ﷻ:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[٢٠٦]

فإذا تفكر الإنسان في هذه الحقيقة كما ينبغي، فلا يملك إلا أن يرتعد ويقشعر جلده ويبدأ في محاسبة نفسه. ولو استطاع الإنسان أن يُحْيِيَ في قلبه وعقله معنى هذه الآية فقط بالتمام، لما جرأَ على التفوُّه بكلمة واحدة لا يرضى الله ﷻ عنها، ولما خطرت في عقله فكرة لا يقبلها الحق تعالى.

---

٢٠٥ إن الحق ﷻ يتجلى بصفته «الخالق» عندما يظهر الخير أو الشر. فالعبد عندما يريد أن يرتكب فعل شر، فإن ربنا ﷻ إن أرادَ، يتجلى بصفة الخالق ويأذن في تحقيق ذلك الفعل. وإذا أراد أن يرحم العبد لا يأذن له بتحقيق غايته. وتنطبق هذه الحال تماماً على أفعال الخير، فلو أن العبد أراد أن يؤدي فعل خير، فإن ربنا ﷻ إن أرادَ، يتجلى بصفة الخالق ويأذن له في ذلك، وإن أراد غير ذلك لم يأذن له. والعبد في هذه الحال يُؤجَر على نيته في فعل الخير؛ أي إن الله تعالى هو خالق الخير والشر لكنَّ رضاه سبحانه لا يكون إلا في الخير.

٢٠٦ الملك: ١٤.



وبحسب الإنسان هذه الآية الكريمة وحدها ليعيش متقياً في كل لحظة ويكون متيقظاً دائماً خوفاً من أن يُحاسَب.

يخبرنا الله تعالى في سورة الأنفال أنَّه يحول بين المرء وقلبه[٢٠٧] ويوجِّه أفكاره إن أراد. فالله ﷻ متحكم في قلب الإنسان وقريب لقلبه أكثر من الإنسان نفسه. وقدرته عظيمة لا حد لها حتى إنه ﷻ لا يدخل بين المرء وغيره فحسب، بل بينه وبين قلبه. وهو قادر على أن يحرم الإنسان من آماله ورغباته التي في قلبه في لحظة. ويستطيع أن يهدم عزم الإنسان وإرادته ويحوِّلها، ويستطيع أن يغيِّر قناعاته ولذَّاته. لهذا فإن الله تعالى عندما يسدل الحجب بين الإنسان وقلبه ويدعوه إلى الموت، فإنه لا يجد مفراً إلا أن يجيبه ﷻ، ولا يجد قدرةً على معارضة أمره. ومن أجل ذلك لا يستطيع الإنسان أن يعلم ماذا سيحدث بعد كل نَفَس يتنفسه.[٢٠٨]

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال:

كنا مع النبي ﷺ، فكنا إذا أشرفنا على واد، هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا، فقال النبي ﷺ:

---

٢٠٧ انظر: الأنفال، ٢٤.

٢٠٨ انظر: محمد حمدي، الدين الحق ولسان القرآن، جـ٤، ٢٣٨٦-٢٣٨٧، الأنفال: ٢٤.

«Bkz. M. Hamdi, Hak Dîni Kura'an Dili, IV, 2386 - 238, el-Enfal:24»

«يا أيها الناس، ارْبَعُوا [ارفقوا] على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنه معكم إنه سميع قريب، تبارك اسمه وتعالى جده».[209]

ونفهم من هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث والآيات أن الحق ﷻ يرغب في أن يقترب العبد منه كما يقترب هو سبحانه من العبد، لهذا قال في كتابه العزيز:

﴿...وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[210]

والذي يدرك أنَّ الحق ﷻ يعلم المشاعر في قلبه بمراقبة الأقربية، لا يكتفي بالابتعاد عن الأعمال السيئة فقط، بل يتجنب المشاعر والأفكار السيئة أيضاً، ويحاول أن يجعل نيَّته صحيحة مستقيمة. ونتيجة هذا التفكر تظهر في العبد محبة لله ﷻ وأُنسٌ عظيم به.

٤- مراقبة المحبة

في هذه المراقبة يتفكر العبد في قوله تعالى:

﴿...يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾[211]

---

٢٠٩ البخاري، الجهاد، ١٣١/ ٢٩٩٢.

٢١٠ العلق: ١٩.

٢١١ المائدة: ٥٤.

فتزيد محبة الله ﷻ في قلب العبد نتيجة هذا التفكر، ويبدأ العبد ينظر إلى مخلوقات الله ﷻ بمحبة، وذلك مِن حبه لخالق تلك مخلوقات، فينظر بمحبة حتى للقطة والكلب أمام بيته، وللفرع الأخضر الذي في حديقته. وعندما يرى زهرة متفتحة يقول: «سبحان الله ما أجمل ما أنعمت به على هذه الزهرة! أنت الذي أكرمتها أيضاً»، ويكون دائمًا في حال الحمد والثناء، ولا يؤذي أحداً، ويعفو عمن أساء إليه؛ لأنه يعلم أن عنده نقائص لا تعد ولا تحصى في حق الله ﷻ، ويتفكر في أنه لو لم يعفُ عن الجرم الذي ارتُكِبَ في حقه، فبأي وجه يطلب العفو من الله تعالى عن الذنوب التي ارتكبها في حق الله رب العالمين!.

والإنسان عندما يعتاد العفو عن الناس ينال عفو الله ﷻ وهذا مبدأ إيماني لا يمكن للمؤمنين الغفلة عنه. والنصر الحقيقي هو أن تتمكن من العفو عمن ظلمك من غير أن تشعر بذرة من حقد أو ضغينة في قلبك.

والعفو الخالص لِوجه الله ﷻ من أكبر مظاهر محبة الله تعالى، وإلا فإن ادعاء محبة الله تعالى بلا دليل يثبته يظل كلاماً فارغاً.



وكل مؤمن يتفكر أثناء المراقبة في هذه الآيات ويستفيض منها على قدر إدراكه وقدرته وصدقه، ومع الوقت يسعى من أجل أن يرقى إلى مستوى يمكنه من قراءة القرآن الكريم كله بهذا التفكر.

والعبد نتيجة هذه المراقبات يوجِّه قلبه إلى الله ﷻ، ولا يشغله بما سواه. ويقدِّم أمر الله تعالى على كل شيء، ويشغل لسانه بذكر الحق ﷻ.

والعبد الصادق يشبه طفلاً مغرماً بلعبته، فالطفل ينام على حب لعبته، وعندما يستيقظ ينهض ليبحث عنها؛ لأجل ذلك على الإنسان أن يفكر فيما يشعر به ويهمه عندما ينام في الليل، فإن كان هَمُّ المؤمن وفكره وشغله الشاغل في الحياة هو الله ﷻ، يكون موته وبعثه مع الله وعلى رضاه.

يقول النبي ﷺ:

«**يُبعَث كل عبد على ما مات عليه**».[212]

«**... يموت الرجل على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه...**».[213]

---

٢١٢ مسلم، الجنة،٨٣/ ٢٨٧٨.

٢١٣ المناوي، فيض القدير، ٥، ٥١٩/ ٨١٧١.

أما إذا كان هَمُّ الإنسان ومراده وغايته إلى شيء غير الله تعالى، فإن موته وبعثه يكون على تلك الصورة، ويوم القيامة لا يجد له ناصراً ولا معيناً.

وقد أخبرنا رسولنا الكريم ﷺ عن أن ملازمة الذكر والتفكر تمكِّن العبد من الوصول إلى حال المراقبة كما ينبغي فقال:

«**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء، يعرفك في الشدة...**».[٢١٤]

ولا بد من مراعاة آداب المراقبة والتفكر والذكر وشروطها من أجل الاستفادة منها على أكمل صورة، ومن بين تلك الآداب اختيار الوقت الملائم لها، عندما يكون القلب في سكينة وطمأنينة بعيداً عن حال الجوع والغضب والنوم التي تُضيق القلب وتُشغِله.



٢١٤ أحمد، مسند، ١، ٣٠٧/ ٢٨٠٣.



آداب التفكر

إن المخلوقات كلها مرآة من الله القادر إلى إدراك الإنسان وشعوره لتريه التجليات الإلهية. وإدراك الأسرار والحكم التي في هذه المرآة متعلقٌ بنقاء مرآة القلب وصفائها.

وتيار المحبة الإلهية يمر عبر خيوط القلب الإيمانية. ودين الإسلام لمن يصلون إلى الكمال بالتفكر هو فصل ربيع أبدي.

تفكر الصحابة وأولياء الله

يُروَى أن أبا بكر ﷺ ذكر ذات يوم وفكر في القيامة والموازين والجنة والنار وصفوف الملائكة وطي السموات ونسف الجبال وتكوير الشمس وانتثار الكواكب فقال:

«وددت أني كنت خضراً من هذه الخضر تأتي عليَّ بهيمة فتأكلني وأني لم أخلق» فنزلت:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [٢١٥]». [٢١٦]

ومرَّ أبو بكر ﷺ على طير قد وقع على شجرة فقال:

«طوبى لك يا طير تطير فتقع على الشجر، ثم تأكل من الثمر، ثم تطير ليس عليك حساب ولا عذاب. يا ليتني كنت مثلك، والله لوددت أني كنت شجرة إلى جانب الطريق فمرَّ عليَّ بعير فأخذني فأدخلني فاه فلاكني[٢١٧]، ثم ازدردني[٢١٨]، ثم أخرجني بعراً ولم أكن بشراً...». [٢١٩]

---

٢١٥ الرحمن:٤٦.

٢١٦ الألوسي، روح المعاني، تفسير سورة الرحمن، آية ٤٦.

٢١٧ لاَكَ: مضغ.

٢١٨ ازْدَرَدَ: ابتلع.

٢١٩ البيهقي، شعب الإيمان، ٢، ٢٢٧/ ٧٦٨.



عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال:

«لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علمٍ لا فهم فيه، ولا قراءةٍ لا تدبر فيها».[220]

«لا خير في صلاة لا خشوع فيها، ولا خير في صوم لا امتناع عن اللغو فيه، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها، ولا خير في علمٍ لا ورع فيه، ولا خير في مال لا سخاوة فيه، ولا خير في أُخوة لا حفاظ فيها، ولا خير في نعمة لا بقاء لها، ولا خير في دعاء لا إخلاص فيه».[221]

كان علي رضي الله عنه ينظر إلى كل شيء بنظرة اعتبار، وكان يطيل التفكر، ويبكي كطفل يتيم ويرتعد كإنسان مريض من خشية الله عز وجل. وكان يحب العبادة كثيراً ويداوم على الزهد، فكان يأكل القليل، ويفعل الخير الكثير. وكان دينه أعز عليه من كل شيء. وكان رضي الله عنه يقول:

«الخير كله مجموع في أربعة: الصمت والنطق والنظر والحركة. فكل نطق لا يكون في ذكر الله فهو لغو، وكل صمت لا يكون في فكر فهو سهو، وكل نظر لا يكون في عبرة فهو غفلة، وكل حركة لا تكون في تعبد فهي فترة.

---

٢٢٠ الدارمي، المقدمة، ٢٩/ ٣٠٥.

٢٢١ ابن حجر، المنبهات، ٣١.

فرحم الله عبداً جعل نطقه ذكراً، وصمته فكراً، ونظره عبرة، وحركته معبداً، ويسلم الناس من لسانه ويده».[222]

وقد عرّف الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﵁ أهل القرآن فقال:

«ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون،وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً،حكيماً حليماً عليماً سكّيتاً».[223]

وعن عون بن عبد الله بن عتبة قال:

«سألت أم الدرداء: ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكر والاعتبار».[224]

وقال عامر بن عبد قيس أحد التابعين الكبار:

«سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر».[225]

٢٢٢ أبو نصر الطوسي، اللمع في التصوف، ١٨٢.

٢٢٣ أبو نعيم، حلية الأولياء، ١، ١٢٩.

٢٢٤ وكيع بن الجراح، الزهد، ٤٧٤.

٢٢٥ ابن كثير، التفسير، ١، آل عمران: ١٩٠.



وعندما قال أحدهم لربيع بن خثيم: دُلَّني على من هو خير منك؟ قال:

«نعَمْ، مَن كان منطقه ذكراً، وصمته تفكراً، ومسيره تدبراً، فهو خير مني».[٢٢٦]

وقال أبو سليمان الداراني:

«عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر».

وقال: «الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية. والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب».[٢٢٧]

وقال يوسف الهمداني في كتابه رتبة الحياة:

«عندما يتلألأ الفكر الإيماني تعقبه الأعمال الصالحة، فينبغي على المرء إقران التفكر بالعمل الصالح في جميع الأحوال ما استطاع».

وقال الفضيل بن عياض:

«الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك».[٢٢٨]

---

٢٢٦ أبو نعيم، حلية الأولياء، ٢، ١٠٦.

٢٢٧ الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤، ٤٢٥.

٢٢٨ الغزالي ، إحياء علوم الدين، ٤، ٤٢٤.

وقيل: التفكر خمسة:

١. التفكر في آيات الله تعالى الذي يجلب المعرفة.

٢. التفكر في نعم الله تعالى الذي يجلب المحبة.

٣. التفكر في وعد الله تعالى وثوابه الذي يجلب الرغبة.

٤. التفكر في وعيد الله ﷻ وجزائِه الذي يجلب الخشية.

٥. التفكر في جحود النفوس أمام عطاء الله تعالى الذي يجلب الحياء والندم.

وكان أبو طالب القاضي يقول:

«جوامع البرّ في طول الفكرة، والصمت سلامة، و الخوض في الباطل حسرة وندامة. وإنما يدعو بالويل والثبور غداً في يوم القيامة من جعل الآخرة وراء ظهره، ونصب الدنيا أمامه».[٢٢٩]

نهر التفكر

وهبَ الحق ﷻ كلَّ عبد من عباده القدرة على التفكر، وأوجد نهراً متدفقاً من التفكر في داخله. وهذا النهر يجري بلا توقف، وعندما يُترَك من غير أن يُحدَّد له المجرى، لا يعرف أين يسيل وإلى أين يتجه، وأحياناً يذهب سدى

٢٢٩ البيهقي، شعب الإيمان، ٧، ٤١٧/ ١٠٨١٢.



في الصحراء القاحلة؛ وبعبارة أخرى قد يتجه نحو عاقبة مجهولة مثل جذوع الأشجار التي تجرفها السيول.

والمهارة في توجيه نهر التفكر هذا إلى الأراضي الخصبة، وتنمية المحاصيل المباركة.

والله تعالى ينبه الناس الذين لا يستعملون التفكر والتدبر في مرضاة الله تعالى في كتابه الكريم فيقول:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٢٣٠]

ويقول جل ثناؤه:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٢٣١]

فالقلب مثل مرآة تتسخ بالغفلة والإنكار، وجلاء هذه المرآة يكون أولاً بتصديق الله ﷻ، ثم بالتوجه إليه سبحانه بمحبة. وعلى الإنسان أن يفكر ويسأل نفسه على الأقل: لماذا جئنا إلى هذه الدنيا؟ وفي ملكوت مَنْ نعيش؟ ومَن الذي يرزقنا؟ وإلى أين المصير؟

---

٢٣٠ الأنفال: ٢٢.

٢٣١ الأعراف: ١٧٩.

فالذي يتَّبع هواه ويخوض في الحياة الدنيا بعيداً عن هذه الحقائق ولا يشغل قلبه بمعرفة الحق والتفكر في آيات وجوده، فعاقبته الخسران والهلاك.

فأمثاله لا يرون النعم الإلهية التي توضِّح الحقائق ولا يتفكرون فيها؛ لذا شُبِّهوا بالحيوانات التي يُضرَب بها المثل في الضلالة والغفلة، لأن رغباتها كلها تنحصر في المأكل والمشرب وإشباع الشهوات. يقول الحق ﷻ:

﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا. أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾[٢٣٢]

يقول أحد العارفين الربَّانيين:

«هذا العالَم للعقلاء لوحةٌ لبدائع صنع الله تعالى، أما للحمقى فليس إلا مأكل وشهوة».

والتفكر - كما أوضحنا من قبل - سلاحٌ ذو حدَّين، يمكن أن يُستخدَم في الخير أو في الشر. ويدخل في باب أعمال النفس الشهوانية أو في باب الأعمال الروحانية. وقد حذَّر الله ﷻ الذين يستعلمون التفكر في طرق الشر والسوء فقال:

٢٣٢ الفرقان: ٤٣-٤٤.



﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [٢٣٣]

والحقُّ أنه مِن أسوء ما قد يصيب الإنسان مرض الإنكار، فمَن لا يُشغِل قلبه وعقله بآيات الله تعالى الكلامية والكونية ولا يتفكر فيها ولا يعقلها، لا يستطيع البرء من هذا المرض وهذا الخبث.

فالعقول التي تتغذى بنور الإيمان وتسير على هدي القرآن والسُّنة تجد طريقها لمعرفة الله تعالى وإلى توحيده، أما العقول المحرومة من ذلك فلا يمكن أن تنال الحق والخير. وهذا هو أشد ما ينخدع به الفلاسفة إذ يعتقدون أنهم قادرون على إيجاد الحقيقة بعقولهم وحدها من غير التأييد الإلهي. وينبغي ألا يُشغِل الإنسان عقله وقلبه بما لا يعنيه حتى يستطيع استعمال نعمة التفكر على الصورة الصحيحة.

يقول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [٢٣٤]

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [٢٣٥]

---

٢٣٣ يونس: ١٠٠.

٢٣٤ المؤمنون: ٣.

٢٣٥ الفرقان: ٧٢.

ويقول رسول الله ﷺ:

«إن من حُسنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».[٢٣٦]

وأنجع علاج للأمراض النفسانية حصر التفكر في الأشياء المفيدة. فالتفكر في الأشياء التافهة التي لا معنى لها هو بابٌ للشر والهزيمة والذِّلة، والذين يتفكرون في الأشياء التي لا تنفع تفوتهم الأشياء النافعة ويُحرَمون من الأشياء الضرورية لهم.

يقول ابن الجوزي:

«ذكر القلب فى المباحات يحدث له ظلمة فكيف تدبير الحرام؟ إذا غير المسك الماء مُنع الوضوء به فكيف ولوغ الكلب؟ ولذا قال بعض الكبار: من اعتاد بالمباحات حُرم لذة المناجاة».[٢٣٧]

فالإنسان إذا لم يوجِّه قوة التفكر والتدبر والتخيل والتصور التي لديه إلى الخير، فإن الشيطان سيوجهها إلى الشر؛ فلا يستطيع الإنسان عندئذ أن ينال نعمة «التفكر الرحماني» ولا يستفيد من القدرات العقلية والقلبية التي أنعم الحق ﷻ بها، بل تكون ضرراً له.

---

٢٣٦ الترمذي، الزهد، ١١/ ٢٣١٨.

٢٣٧ البروصوي، تفسير روح البيان، المؤمنون: ٥١.

اقتران التفكر بالذكر

يقول الشيخ يوسف الهمداني:

«إن القلب والذكر كالشجرة والماء، أما القلب والتفكر فهما كالشجرة والثمرة. فلا ينفع انتظار اخضرار الشجرة وطلب الثمرة من غير أن تُسقَى بالماء. وحتى لو أردنا ذلك فلن تثمر الشجرة أبداً، لأن ذلك الوقت ليس وقت الإثمار، بل وقت تغذية الشجرة ورعايتها. فلا بدَّ من سقيها وإزالة الحشائش الضارة عنها ثم انتظار ضوء الشمس لها. وإذا ما تحققت كل هذه الأشياء فإن الشجرة تنمو وتتزين بالأوراق الخضراء. وفي هذه الحال يصح طلب الثمار من فروعها، وذلك هو وقت الإثمار».[٢٣٨]

يقول الحسن البصري:

«إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت: بالحكمة».[٢٣٩]

والخلاصة أنه ينبغي للمرء ألا يفصل بين الذكر والتفكر، فأهم شيء في الذكر هو التفكر في معانيه. وقد

---

٢٣٨ الهمداني، رتبة الحياة، ٧١.

٢٣٩ الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤، ٤٢٥.

عبَّر الشيخ محمد بارسا وهو أحد أولياء الله الكبار عن معنى كلمة التوحيد فقال: «عندما تقول «لا إله» عليك أن تفكر في فناء المخلوقات وأن تُطهِّر أفكارك ومشاعرك بإبعاد ما سوى الله تعالى عن ذهنك وقلبك، وعليك أن تملأ قلبك بشعور أنك لست عبداً لأحد غير الله ﷻ. وعندما تقول: «إلا الله» عليك أن تعتقد أن الله تعالى قديم أزلي أبدي وأنه لا موجود يستحق التوجه إليه بالمحبة إلا هو؛ عندها تتجلى صفات الله ﷻ الجمالية في قلبك».

وقال محمد بهاء الدين نقشبند رحمه الله:

«إن المقصود من الذكر ليس أن تقول (الله) و(لا إله إلا الله) فقط، بل أن تنتقل من السبب إلى المُسبِّب، وترى مجيء النعمة منه».

أي إن حقيقة الذكر أن ترتقي من ساحة الغفلة إلى أفق المشاهدة.

أما مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله فيقول:

«إن ربنا ﷻ الواحد الأحد الذي لا شبيه له قد أذِنَ لنا قائلاً: (اذْكُرُوا اللَّهَ). فهو قد رآنا في النار فأنعم علينا بالنور... والذكر بالفم واللسان من غير تفكر وإحساس إنما هو خيال ناقص. أما الذكر الملَكِيُّ الذي يكون بالروح والقلب فهو يتجاوز حدود الكلمات».



إن محبة الله تعالى تزيد مع الوقت لدى الذي يذكر اسم الله تعالى وصفاته بتفكر وتدبر، لأن ذكر الله تعالى ليس تكرار لفظ الجلالة «الله» فقط، بل هو تثبيت لمحبة الله تعالى في القلب الذي هو مركز الإدراك.

والإنسان يصل بالذكر والتفكر إلى محبة الله أولاً، ثم بتلك المحبة يبدأ في معرفته سبحانه بأسمائه وصفاته، حتى يصل إلى حال إذا رآه الناس ذكروا الله تعالى، وعندها يحبه الحق ﷻ ويصطفيه ويتخذه خليلاً. إذ يقول الله تعالى في الحديث القدسي:

«...**إن أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين يُذكَرون بذكري وأُذكَر بذكرهم**».[٢٤٠]

والذِّكر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

- ذكر باللسان.
- ذكر بالبدن.
- ذكر بالقلب.

فأما **ذكر اللسان** فهو ذكر الله تعالى بأسمائه وصفاته العليا، وحمده وتسبيحه وتنزيهه، وقراءة كتابه، ودعاؤه.

---

٢٤٠ أحمد، مسند، ٣، ٤٣٠/ ١٥٥٤٩.



وأما **ذكر البدن** فهو انشغال كل عضو في الإنسان بما أمر الله تعالى به واجتناب ما نهى عنه.

أما **ذكر القلب** فيوضحه الشيخ ألمالِلي حمدي أفندي قائلاً: «ذكر القلب ثلاثة:

١- التفكر في الأدلة التي تدلك على ذات الله، وصفاته، والبحث عن أجوبة للشبهات المتعلقة بمُلك الله تعالى.

٢- التفكر في حقوق ربنا ﷻ علينا وواجبات عبوديتنا. أي التفكر في أوامر الله ﷻ ونواهيه، والأدلة عليها، والحكمة منها. لأن الإنسان عندما يعلم ماهية التكاليف وثمرة طاعته للأوامر الإلهية يزداد رغبةً في الأعمال الصالحة.

٣- التفكر في الأحياء الموجودة في داخل الإنسان والكون الذي هو فيه، وأسرار الخلق التي فيها، وإدارك أنَّ كلَّ ذرة فيها مرآة للعالَم الإلهي. فالذين ينظرون إلى هذه المرآة كما ينبغي تنعكس على عيونهم أنوار عالم الجلال والجمال. وقيمة لمعة تنعكس من تلك المرآة للحظة تعدل أذواق الدنيا كلها.

فلا نهاية لمرتبة الذكر هذه. والإنسان في هذه المرحلة يتجرد من نفسه ومن العالَم، ويفنى شعوره كله في الحق ﷻ، حتى لا يبقى أثر أو علامة من الذكر والذاكر، ولا يحس إلا



بالمذكور ﷻ. والحق أن الذين يتكلمون عن هذا المقام كثير، غير أن الذي بلغوه لا يتكلمون».[241]

والخلاصة أن المخلوقات كلها مرآة من الله القادر إلى إدراك الإنسان وشعوره لتريه التجليات الإلهية، وإدراك الأسرار والحكم التي في هذه المرآة متعلقٌ بنقاء مرآة القلب وصفائها.

الأسحار أكثر أوقات الذكر والتفكر بركةً

إن المحب يذكر محبوبه كثيراً، والذي يذكر شيئاً ما كثيراً يبدأ بعد مدة في حبه أكثر. أما شدة المحبة فتُقَاس بالتضحية التي تبذل في سبيل المحبوب. لذلك فإن تجافي الجنوب عن المضاجع في أوقات السحر والتوجه إلى الله ﷻ ومناجاته من أجمل مظاهر المحبة الحقيقية.

علينا أن نعلم أن الرحمة الإلهية تفيض في أوقات السحر، فما أشقى مَن يُحرَم من مائدة الرحمة الإلهية!

إن أعظم أجزاء اليوم قيمةً وقت السحر الذي يأتي في الثلث الأخير من الليل. ووقت السحر وقتٌ يبتعد

٢٤١ انظر: محمد حمدي، الدين الحق ولسان القرآن ، البقرة: ١٥٢ .
«Bkz. M. Hamdi, Hak Dîni Kura'an Dili, el-Bakara, 152»

فيه الذهن عن المشاغل، ويصفو القلب فيه ويرِق، ويعم السكون، ويضعف الارتباط بالأمور الفانية. وفي هذا الوقت تتنزل الرحمة الإلهية، ويكون رب العالمين أقرب ما يكون إلى العبد. ووقت السحر أفضل الأوقات للاعتبار لمن يفكر ويعتبر، لأنه وقت يخلو من المشاغل، ويستطيع القلب أن يتوجه فيه إلى الله تعالى بالمعنى الكامل، وهو أبرك الأوقات للتفكر.

يقول الحق عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا. إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا. إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [٢٤٢]

أمّا النهار فهو وقتُ تشتت الانتباه وزيادة الأصوات والضجيج. والذي لا يعرف قيمة أوقات الليل العظيمة لا يستطيع أن يتوجه إلى الله تعالى بين مشاغل النهار، ولا يستطيع أن يصل إلى روحانية العبادة التي في الأسحار.

٢٤٢ المزمل: ١-٧.

وصفوة الكلام أن أوقات السحر لحظات مباركة مُخصَّصة للعبادة، أما النهار فهو نعمة جميلة للسعي وكسب الرزق؛ أي إن المؤمن في أوقات السحر يكون مع الله وحده، أما في أوقات النهار فيكون مع الله وهو بين الناس.

لذا نجد السيدة عائشة رضي الله عنها تحدثنا عن اهتمام رسولنا الكريم بتلك الأوقات المباركة فتقول لأحد الصحابة:

«لا تدع قيام الليل فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً».[٢٤٣]

وكان رسول الله أكثر ما يتفكر في الليل، وكان يقوم الليل وهو في ركوع وسجود متصل حتى تنهمر دموعه وتتورم قدماه.

قال الحسن ابن رشيق القيرواني:

«ليس يفتح مقفل بحار الخواطر مثل مباكرة العمل بالأسحار، عند الهبوب من النوم، لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حسها في أسباب اللهو أو المعيشة أو غير ذلك مما يعييها، وإذ هي مستريحة جديدة كأنما أنشئت نشأة أخرى،

٢٤٣ أبو داود، التطوع، ١٨.



ولأن السحر ألطف هواءً وأرق نسيماً، وأعدل ميزاناً بين الليل والنهار. وإنما لم يكن العشي كالسحر – وهو عديله في التوسط بين طرفي الليل والنهار – لدخول الظلمة فيه على الضياء، بضد دخول الضياء في السحر على الظلمة»[244].

يقول الحق ﷻ:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[245]

إن استغفار المؤمن في الأسحار وتفكره في العذاب الإلهي، وتذكر الموت، والتخطيط الجيد لما تبقى من حياته، والتفكر في القرآن الكريم هي من الأعمال الصالحة التي يحبها الله ﷻ ويرضى عنها.

فالحق ﷻ قد بشَّر عباده الذين يحيون الأسحار، ويقضون عمرهم في الإنفاق في سبيل الله فقال:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[246]

---

٢٤٤ أبو غدة، قيمة الزمن، ص١٠١.

٢٤٥ السجدة: ١٦.

٢٤٦ السجدة: ١٧.



وقد فسر رسول الله ﷺ هذه الآيات الكريمة فقال:

«قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».[٢٤٧]

ونفهم من هذا أن نِعَم الجنة التي لم نُخبَر بها أكثر من النعم التي نعرفها. ويُروَى أن تلك النعم لا يعلمها حتى الرسل والملائكة المقرَّبون.



٢٤٧ البخاري، بدء الخلق، ٨/ ٧٤٩٨.



النتيجة

التفكر مفتاح الحقيقة والنجاة

لا يمكن الوصول إلى الحقيقة إلا بالتفكر والاستدلال. وأنَّى يصل إلى الحق مَن يتعامى أمام الأدلة التي هي مظاهر القدرة الربانية وتجليات العظمة الإلهية؟ ولهذا قيل: «إذا كان العلم لا يُوقِظُ المشاعر والأحاسيس فليس بعلم».

وقد بين الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم موقف الكافرين الذين لا يجدون الحقيقة قائلاً:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾[٢٤٨]

إن الإنسان يبلغ الحق والخير إذا سعى ليقتدي بالنبي ﷺ مستعملاً عقله الذي ينجيه من الآفات مثل الوهم والخيال والهوى والذي يعمل في إطار الكتاب والسُّنَّة. ولو لم يتفكر الإنسان بمعجزات النبي ﷺ واقتصر على التفكر بأخلاقه وسيرته حق التفكر، لأدرك أنه نبي صادق وأنَّ ما

٢٤٨ النمل: ٨٠.



دعا إليه إنما هو الحق. وتكون نتيجة هذا التفكر أنه ينجو من رغباته الشهوانية ومن المتاهات التي يجرُّه إليها عقله.

وقد أخبرنا الحق جل ثناؤه عن حال أصحاب النار وعن الحسرة والندامة التي لا تفارقهم فقال:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾[٢٤٩]

فالإنسان يستطيع الوصول إلى الحقيقة والفلاح الأبدي بطريقين:

١- إمَّا أن يجد المؤمنين الصالحين ويسلِّم نفسه لهم، ويطيع الله تعالى معهم في جو روحانيتهم.

٢-أو يستعمل قدرة التفكر والتدبر التي وهبها الله تعالى له على هدي القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأن يُخضعَ نفسه وقلبه وعقله لهما.

فإذا لم يعمل الإنسان بأحد هذين الأمرين، أي لم يطع أهل الحقيقة، ولم يتفكر بعقل سليم، فعاقبته بلا شك العذاب الأليم.

---

٢٤٩ فاطر: ٣٧.



التفكر الحقيقي إثبات «واجب الوجود»

أوضحنا فيما سبق أن الإنسان لا يطيق إدراك ذات الله تعالى، لأن طريق العلم البشري قائم على الحواس الخمس والعقل والقلب. وقدرة هذه الوسائل محدودة، ولا يمكن بواسطة محدودة الإحاطةُ بوجود باقٍ مطلق أزلي أبدي. والإدراك الذي يتم بواسطة محدودة يكون محدوداً لا محالة.

لهذا فإن الانشغال بالأمور التي تتجاوز طاقة البشر كالتفكر في ذات الله تعالى، والسعي إلى حل كنه أسرار القدر وحكمته يعد أمراً محرَّماً في الكتاب والسنة. فإذا كان عدم التفكر في الحقائق الإلهية سبباً للهلاك، فكذلك جهل الإنسان بحدوده، وانشغاله بأمور تفوق قدرته مصيبة تؤدي إلى خسران كبير. لذا قال رسول الله ﷺ:

«تفكروا في آلاء الله- يعني عظمته- ولا تتفكروا في الله».[٢٥٠]

ويقول الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي:

«كل ما خطر ببالك فالله غير ذلك».

٢٥٠ البيهقي، شعب الإيمان، ١، ٢٦٢؛ الديلمي، الفردوس، ٢، ٥٦.

لأن إحدى الحقائق التي يعلِّمها الإسلام لنا هي أنَّه من صفات ذات الله تعالى «مخالفة الحوادث»؛ أي إنه سبحانه وتعالى لا يشبه أي مخلوق. لذا فإنَّ وصفنا لإنسان ببعض صفات الله تعالى كأن نقول إنه عالم أوعادل لا يُعدُّ شِركاً لإيماننا بصفة مخالفة الحوادث.

وإذا كان من المُحال إدراك ذات الله تعالى، فإنه يمكن الاطلاع على وجوده ووحدانيته عقلاً وقلباً عن طريق تجليات صفاته على الكون والحوادث. وهذا هو الشيء الوحيد الممكن للإنسان المحدود القدرة كغيره من المخلوقات، وهذا يكفي لأن يُقبَل الإنسان مؤمناً عند الله تعالى؛ ولهذا كان علماء الإسلام يقولون:

«ذروة العلم وأفضله: معرفة الله تعالى».

والحقُّ أن للإنسان إدراكاً ينقله من الصفة إلى الموصوف، ومن الأثر إلى المؤثِّر، ومن الصنعة إلى الصانع، ومن السبب إلى المُسبِّب. والإنسان بهذه الطريقة أي بالنظر إلى بديع صنع الله تعالى في مخلوقاته وإلى نعمه التي وهبها لها، يتيسر له إدراك عظمة الله وقدرته ورحمته وفقاً لطاقته؛ فكلٌّ يغرف من بحر معرفة الله تعالى على قدر إنائه.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«أردتُ مرةً أن أرى نور الله تعالى في الناس، فأدركتُ أني كنت أريد أن أرى البحر في قطرة، والشمس في الذرة!».

ولو أن الإنسان نظر إلى صفات الحق ﷻ وأفعاله وآثاره بتدبر وتفكر حقيقي وإدراك سليم، فمن المحال أن يكون منكراً لوجوده تعالى، لأن الإنكار يبدأ حين تفسد الأحاسيس القلبية والأنشطة الذهنية والفكرية. فلا يمكن لمن كان ذهنه وقلبه على الفطرة السليمة أن ينجرَّ إلى الكفر، وإذا كان قد فتح عينَيه في عالَم الكفر فنجاته من الكفر أمرٌ يسيرٌ. وأجمل مثال لذلك قصة سيدنا إبراهيم ﵇ المذكورة في القرآن الكريم. فهو قد وُلد ونشأ بين المشركين، إلا أنه أدرك بعقله وقلبه وجود الله ﷻ ووحدانيته.

وعلى هذا فإنه من المحال إطلاق صفة الإنكار المطلق على مَن يفكر تفكيراً سليماً. ولا تنتهي المسألة بمجرد قول: «لا يوجد إله»، بلا بد من إثبات هذا القول بالأدلة الصحيحة المقنعة. وأي دليل يضعه أولئك الذين عجزوا عن حل لغز الحياة والكون وما بعد الموت باكتفائهم



بقول «لا يوجد إله»! مَثَلهم كمثَل مريض لا يحس بالجوع ومعدته فارغة لِعلةٍ في جسمه، فإن قال: «لست جائعاً» فإنما ذلك دليل مرضه. والمصاب بالشلل في جهازه العصبي لا يشعر بالمسمار إن انغرس في جسمه أو السكين إن قطع أعضاءه. وهذا حال مَن عميت أرواحهم عن رؤية الحقائق الكبرى، ووصفهم الله ﷻ بقوله:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ...﴾ [٢٥١]

فقد وضع الله تعالى في فطرة كل إنسان الحاجة للإيمان والبحث عن الحقيقة والقدرةَ على الوصول إليهما؛ ومن أجل ذلك فإن الابتعاد عن الإيمان والحقيقة لا يكون إلا لعمى وصمم معنوي. لأن روح غير المؤمن تكون إما في حال استعداد لإدراك الله تعالى أو في حال إدراك له. وهذه الحال تشبه تمامًا الرؤى التي نراها ولا نتذكرها.

إن ميل روح الإنسان إلى الإيمان أمر فطري، وهذا الميل يظهر لدينا حاجةً لا يمكن الاستغناء عنها منذ الطفولة مثل حاجتنا للطعام عندما نشعر بالجوع. فالطفل مثلاً حينما يرى والده يؤدي الصلاة لا يسأل أسئلة عن تفصيلات أداء الصلاة. بل يحاول التعبير عن عظمة الله تعالى بصورة مادية

---

٢٥١ البقرة: ١٨.



لأنه لا يستطيع إدراك عظمته بصورة معنوية، فيسأل عن مدى عظمة الله تعالى، وإلى أين نذهب بعد الموت، وكيف الجنة والنار؛ فهو في بحث دائم، إذ الروحانيات مكنوزة في فطرته، فإذا ظهرت في وعيه أصبح مؤمناً، وإذا ما حُبِسَت في اللاوعي صار كافراً. إنَّ الطائر إذا حُبِسَ في قفص مدة طويلة من عمره، ثم أُطلِق سراحه، لن يستطيع الطيران لفقدان جناحيه قدرتهما، وكذلك الشعور بالإيمان عندما لا يخرج إلى الوعي يفقد الإنسان القدرة على الإيمان.

فعلينا أن نعرف الله الذي خلقنا من عدم على قدر استطاعتنا، ولا بد أن ندرك صفاته وأفعاله بصورة صحيحة حتى نعرفه ونكون من الواصلين إلى مرضاته.

فلو أن ربنا العليم الحكيم عندما أرسل نبينا ﷺ إلى المشركين ليبلِّغهم رسالته أنزلَ عليه أن: «اقرأْ باسم ربك الذي لا شريك له» لجلب هذا معه اعتراضاً مؤكداً، ولقلَّ احتمال أن تتشرف مدارك المشركين بالإيمان بانحصارها بمسألة الشرك. لكن الله ﷻ قد بدأ بصفة «الخلق» التي لا يمكنهم أن يعترضوا عليها، فقال:

﴿**اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ [٢٥٢]

٢٥٢ العلق: ١.



فهؤلاء المشركون الذين كانوا يعلمون أن الأصنام لا تستطيع أن تخلق شيئاً قد فهموا أن الله هو الإله الحق، وأنه وحده أهلٌ للمدح والثناء.

وفي ذلك يقول البيضاوي في تفسيره:

«وقد عدد سبحانه وتعالى مبدأ أمر الإنسان ومنتهاه إظهاراً لما أنعم عليه، من أن نقله من أخس المراتب إلى أعلاها تقريراً لربوبيته وتحقيقاً لأكرميته، وأشار أولاً إلى ما يدل على معرفته عقلاً ثم نبَّه على ما يدل عليها سمعاً».[٢٥٣]

والخلاصة أن الحق عَزَّ وَجَلَّ قد جعل التفكر فيما خلق وسيلة لدخول المشركين في الإسلام وتشرفهم بالإيمان. وجعل تفكر المؤمنين في هذا الأمر وسيلة لتقوية إيمانهم وزيادة القرب من مرضاته عَزَّ وَجَلَّ.

كل شيء يتحرك ويتغير

لو فكَّرنا وتأمَّلنا لوجدنا أن كل شيء في هذا العالَم الذي نراه يتغير ويتبدل من صورة لأخرى، فالنطفة تصير علقة، والعلقة تتغير إلى مضغة، والمضغة تتحول إلى عظام ولحم. وهذا النوع من التحولات يكون في كل شيء، في النجوم والكواكب والمعادن والنباتات.

٢٥٣ البيضاوي، التفسير، سورة العلق، ٥.



وداخل الذرة توجد حركة عظيمة. فالإلكترونات تدور بحساب دقيق وبسرعة لا يمكن لعقل أن يتخيلها. أما البروتونات والنيوترونات في النواة فتتزاحم وتنضغط في حيز صغير لذلك ترتفع سرعتها إلى أرقام كبيرة مقارنة بالإلكترونات، إذ تسير بسرعة تتجاور ٦٠ ألف كم تقريباً في الثانية. وهذه السرعة المرتفعة سببٌ لرؤيتها كأنها «قطرات سائل يغلي ويفور» بشكل لا يصدقه عقل.

ولو تذكرنا أن مساحة ١ملم٢ التي تعادل رأس إبرة تقريباً تتكون من ١٠٠ تريليون ذرة، لأدركنا أحسن إدراك القدرة الربانية التي تقف وراء حركة الكون.

فلا بد من مؤثِّر حقيقي لوجود كل هذه الحركات والتغيرات في الكون، وهذا المؤثِّر إنما هو الله تعالى الخالق المتعالي؛ ذلك أنه من المحال ظهور الأحوال الخارقة للعادة التي تدهِش العقل وتحيِّره بلا مؤثِّر.

كل شيء خُلِقَ لغاية

من أوضح الواضحات أن كل شيء في هذا الكون خُلِق لحكمة وفائدة. وقد ذكرنا من قبل:

إن المخلوقات في الدنيا تتنور بنور الشمس والقمر فتنشأ وتنمو. ومع دوران الأرض والقمر حول الشمس تكون



الأوقات، فتتكوَّن السنوات والفصول والأيام والليالي من دوران الأرض، وتتكوَّن الشهور من دوران القمر.

والهواء الذي نتنفسه يذهب إلى الرئتين فيصفِّي الدم. والهواء وفير وسهل الحصول عليه لأن أجسامنا تحتاج إليه أكثر من أي شيء.

والرياح تحمل السحاب وتسوقه إلى المكان الذي يحتاج المطر. وتنظِّف الهواء وتضبط الحرارة وتلقِّح النباتات. وفوائد البحار كذلك لا تُعَد ولا تُحصَى.

ولا يخفى على أحد أن هذه الظواهر وأمثالها الكثيرة لها أهمية كبيرة في حياة الإنسان. والذي يشاهدها فيعتبر بها ويتفكر فيها يستنتج أن في خلق كل شيء حكمة كبيرة وغاية عظيمة، وأن عدَّ هذا النظام الدقيق صدفةً لَهو الجنون عينه. فما كلُّ ما نراه إلا أثرٌ من آثار ذي العلم والحكمة والقدرة والعظمة؛ ألا وهو الله تعالى.

آثار مختلفة من مادة واحدة

إن أصل المخلوقات المختلفة التي نراها حولنا واحد، فكلها تكوَّنت من المادة. والعناصر المختلفة هي أجزاء الماهية نفسها، فالأجرام السماوية مثلاً خُلِقَت من المادة



نفسها أيضاً، لكن لكل منها هوية وشكل ومقدار وعمر؛ فبعضها شديدة البرودة، وبعضها شديدة الحرارة.

ومن عناصر مثل الكربون والنيتروجين والأوكسجين والهيدروجين تتكون النباتات والحيوانات. مع أنه لا علاقة بين تلك المواد وصفة الحياة، أو صفات مثل العلم والإرادة والقدرة والسمع والرؤية.

فهذه كلها من بدائع صنع الله تعالى، وتلك الموجودات المختلفة التي نراها في الكون أثرٌ لصانع قدير قد أحسن كل شيء خلقَه. ومن المُحال أن يُشبِه من أوجد هذه البدائع الخارقة للعادة أي مخلوق؛ لأنه سبحانه «واجب الوجود» الأزلي الأبديُّ الذي لا يحتاج لوجوده إلى أحد.

وصفوة حديثنا أنه ليس من العسير على إنسان يتفكر أن يجد ربه وأن يتحير أمام قدرته وعظمته. فبالتفكر يؤمن الإنسان إذا كان كافراً، ويزداد المؤمن إيماناً ويرتقي في درجات المعرفة والمحبة.

طريق معرفة الله تعالى

كان علماء الكلام يقولون:

«أول ما أُمر به الإنسان معرفةُ الله والميل إلى التفكر الموصل إليها».



وغاية القرآن الكريم ومقصده الأساسي تخليصُ العقول والقلوب من الانشغال بما سوى الله تعالى، وسوقها إلى معرفته سبحانه وتعالى.

فالله تعالى قد خلق الإنسان كي يتعرف إليه ويعبده. وأجمل طريق للوصول إلى هذه الغاية الذكر والتفكر. والعبادة جوهر حياة الإنسان، أما الذكر فهو من أجمل أشكال عبادة الحق ﷻ. والذكر والفكر توأمان لا ينفصلان أبداً.

ومما لا شك فيه أن أهمَّ شيء للإنسان أن ينال السعادة الأبدية، وكل الرغبات الأخرى لا قيمة لها أمام هذا المطلب. وأهم وسيلة للوصول إلى السعادة الأبدية إنما هي «معرفة الله ﷻ».

فالمعرفة العلمية فهمُ أي حادثة بعلاقة السبب والنتيجة، أما المعرفة الحقيقية فإنها تتحقق- إضافة إلى الفهم العلمي- بإدراك تجليات الإرادة الإلهية في تلك الحادثة؛ ولهذا فإن كل معلومة توصِل إلى العلم بوجود الله تعالى تُسمَّى «معرفة الله».

لقد ذكر الله تعالى في سورة المؤمنون كلمة «تذكَّرون» التي من معانيها التفكر قبل كلمة «تتَّقون»، لأن الإنسان يصل إلى معرفة الله بالتفكر والتدبر، ويعرف أن من



واجبات التقوى وضرورياتها اجتناب ما نهى الله عنه، والحذر من مخالفته عز وجل بعد أن عرفه حق المعرفة؛ فكلُّ عمل من غير معرفة الله لا قيمة له.

يقول الحق عز وجل:

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [٢٥٤]

ولا ريب أن أرقى العلوم وأعلاها **معرفة الله تعالى**، لذا كان الجنيد البغدادي رحمه الله يقول:

«لو أعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه».

وقال الإمام ابن القيم عليه رحمة الله:

«الرب يدعو عباده في القرآن الى معرفته من طريقين: أحدهما: النظر في مفعولاته. وثانيهما: التفكير في آياته وتدبّرها. فالأولى آياته المشهودة، والثانية آياته المسموعة المعقولة». [٢٥٥]

---

٢٥٤ المؤمنون: ٨٤-٨٧.

٢٥٥ ابن القيم، الفوائد، ٢٠.



لا بد من تحول التفكر إلى عمل

على الإنسان أن يطبِّق ما يتعلمه كي يصل إلى الحقيقة عن طريق التفكر والذكر والمراقبة. فالذي يفكر في الحقائق الإلهية والآيات القرآنية إذا لم يعمل بمقتضاها، فلن يصل إلى المستوى المقبول من التفكر، لأن العمل انعكاس التفكر الباطني والتدبر الداخلي إلى الظاهر.

وفي هذا الشأن يقول الإمام الغزالي:

«أما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير. فإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح. فالعمل تابع الحال، والحال تابع العلم، والعلم تابع الفكر. فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها.

فإذن التفكر أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة فقيل هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة وقيل هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى».[٢٥٦]

٢٥٦ الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤، ٤٢٦.



والإنسان في ظل هذا التفكر والتدبر الذي تحول إلى عمل يتخلص من مرض رؤية البدائع في الكون أموراً عادية طبيعية.

وكم يؤسفنا حين نرى الإنسان يقف بدهشة وانبهار أمام اللوحات التي أبدعها رسام مقلداً فيها الطبيعة، ولا يشعر بالشعور نفسه حينما يقف أمام البدائع الكونية.

أما أهل الله الذين لهم قلوب سليمة طاهرة فإنهم يشعرون بالدهشة والإعجاب والحيرة أمام الصانع الحقيقي وآثاره في الكون بدلاً من الإعجاب بتلك اللوحات التي أبدعها الرسام ليخلِّد اسمه، ويتلذذون بالصنعة الإلهية في الطبيعة حين يرون الأزهار والأوراق المختلفة الألوان والأشكال مع أنها تنبت في التراب نفسه وتُسقَى بماء واحد، وحين يرون ثمار الأشجار المختلفة الألوان والروائح والأشكال والطعوم، وحين يرون النقوش البديعة في أجنحة الفراشة التي لم يبلغ عمرها أسبوعاً أو أسبوعَين. وينظرون إلى الإبداع والعظمة في خلق الإنسان وما إلى ذلك من العجائب الإلهية التي تُعبَّر عنها بلسان الحال.



والكون كله لهؤلاء المفلحين كتابٌ مهيَّأٌ للقراءة. وهؤلاء تجاوزوا العلوم التي في السطور فوصلوا إلى العلوم التي في الصدور. فمولانا جلال الدين الرومي مثلاً كان منكباً على كتبه أثناء تدريسه في المدرسة السلجوقية، إلى أن رأى شمساً الدرويش بقلبه المليء بالمحبة، فتلقى منه الإرشاد، فامتلأ قلبه بالروحانيات... وكأنه وُلِدَ مرة أخرى، فجعل كتب العلوم الظاهرة عند حدها، وصار يقرأ أسرار الكون، وأبدع كتابه «المثنوي» الذي كان رسالة نجوى ومناجاة وتضرع توضح الأسرار والحِكَم التي في الإنسان والكون والقرآن.

فطوبى لعباد الله الخواص الذين وصلوا إلى معرفة الله بعد أن عاشوا حياتهم الدنيا في تفكر وتدبر بقلوب رقيقة مملوءة بنور الإيمان وبعقول سليمة تربَّت على هدي الكتاب والسُّنَّة.





خاتمة

يبحث في عصرنا الحاضر بعضُ الناس الذين ابتعدوا عن تراثهم وثقافتهم عن السكينة والطمأنينة في برامج التنمية البشرية ذات الأصول الغربية، أو في دروس اليوغا ذات الأصول الشرقية. مع أن السكينة الحقيقة التي يبحث عنها الإنسان تكمن في المراقبة التي تتحقق بالذكر والتفكر والتدبر والتي هي مفتاح الحقائق والحكم الإلهية التي أوصى بها الإسلام.

فالتفكر السليم أساس انشراح الصدر وسكينة القلب، وبه يصل المرء إلى الحكمة. ورأس الحكمة مخافة الله وتقاه والخشية منه سبحانه؛ إذن فالتفكر يوصل المؤمن إلى مرضاة الله ﷻ ومحبته.

والإنسان الذي يتفكر في الكون والأحداث كما ينبغي يبحث عن أجوبة لأسئلة مثل: ما هذه الدنيا؟ ولماذا خُلقتُ؟ وما حقيقة هذه الأيام الفانية؟ وأي الطرق طريق السعادة؟ ومَن أنا؟ وكيف ينبغي أن أعيش؟ ومن أين جئت وإلى أين سأذهبُ؟ ولا شك أن هذا النوع من التفكر



سيخلِّصه من شهوات الدنيا الفانية، ويوصله إلى الطريق الصحيح وإلى السعادة الأبدية.

وقد حاولنا في كتابنا هذا أن نعرض جزءاً بسيطاً من الأسرار والحكم والحقائق التي في الكون والإنسان والقرآن مستفدين من الثوابت العلمية في عصرنا الحاضر. وربما تظهر أسرار وحكم أكثر في المستقبل تلقي الضوء أكثر على سرمدية القدرة الإلهية وعظمتها.

والمسائل التي عرضناها هنا إنما هي أمثلة تناسب حجم كتابنا المتواضع. ولعلَّ قراءنا الأعزاء يتمكنون من توسيع آفاق التفكر حتى يحيط بالكائنات والأحداث كلها في قلوبهم، فيجمعوا كثيراً من لآلئ الحكمة والأسرار من بحر معرفة الله تعالى.

اللهم أنعِم علينا جميعاً بالقدرة على التفكرٍ كما ينبغي، ويسِّر لنا إحياء قلوبنا بقراءة أسرار القرآن والإنسان والكون قراءة اعتبار وتدبر. واجعلنا أجمعين من عبادك المفلحين الذين يعيشون دائمًا في حال المراقبة فيصلون إلى معرفتك يا ربَّ العالمين!

آمين.



فهرس





التفكر في الإنسان/ ٨٧

التفكر في القرآن/ ١١٩





آداب التفكر/ ١٧١

النتيجة/ ١٩١





